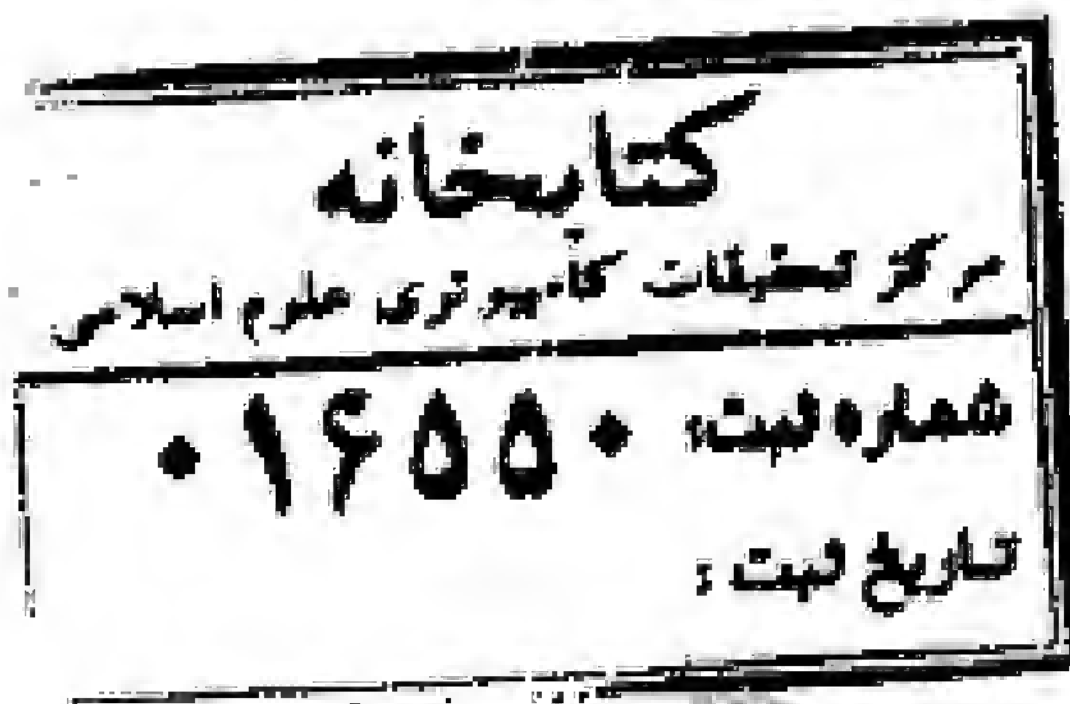


تاریخ الحباب العیون العرب

تحریر الاول



نشأت الحضارة



تاریخ اطباء العمیون العرب

الجزء الاول

اصدار خاص

من مجلة

الكحکال

الطبعة الثانية

١٩٨٥



مرکز تحقیقات کتب و تاریخ علوم اسلامی



الاستاذ الدكتور فواد سزكين



مرکز تحقیقات کتب و تاریخ علوم اسلامی

هذا الكتاب

لا اظن ان احداً ينتظر صدور هذا الكتاب ، حتى الذين سمعوا به يوم
كنت اكتب مادته . .

انه كتاب موجه لعامة الناس ، « لجمهور القراء » كما يسميهم
الكتاب . يعرض سيرة اهم اطباء العيون العرب عبر التاريخ الطويل ،
يعرف بهم ، ويلخص إنجازاتهم . « وجمهور القراء » عادة لا ينتظر الكتب
التي تكتب له . وهو ليس مكتوباً بلغة طبية فنية فهمها حكر على
الاطباء ، بل وليس مكتوباً بلغة المؤرخين المتخصصين الذين يعنون
بتاريخ العلوم .

لقد حاولت ان أبسط مادته الى أبعد الحدود الممكنة ، حتى انني
ظننت احياناً ، ان اطباء العيون ، لن يقرأوا هذا الكتاب لشدة بساطته .

انه لا يحمل وقار الكتب الجامعية ، ولا تزمت كتب التاريخ ، ولا هبة
كتب السير . لا تثقله الحواشي ، ولا الهوامش ، ولا يضع فيه القارئ
في خضم الاسنادات والاقتباسات .

ومع ذلك ، فالمادة التي في الكتاب صحيحة ومستندة ومبروسة ، وهي
تلخيص لجهود كوكبة من افاضل مؤرخي الطب في هذا العصر .

ولقد سألت نفسي مراراً : ماذا يهم « جمهور القراء » من امر اطباء
العيون العرب ، وتاريخهم ، وإنجازاتهم ؟
بل ماذا يهم الأطباء من امر اسلافهم ؟

ان الاهتمام بالتاريخ ، هو جزء من حب المعرفة . والشفف باستطلاع الماضي ، هو رغبة عند الانسان ، لا نستطيع إقناعه بجدارتها .
ولكننا إذا عرضنا التاريخ أمامه ، ربما استهواه .

ولقد حرصت على مراعاة الحقيقة ، في سرد الماضي . هذه الحقيقة التي لم يكن من السهل على المؤرخين ، استقراؤها من بين العديد من الروايات .

وسارعي العرض الحيادي للحقائق التاريخية . وسأتوخى الإيجاز الشديد خاصة ، وان اطباء العيون العرب بسيرتهم وخلقهم وانجازاتهم وآثارهم يدفعون المؤرخ العربي الى مزالقي الحماس والتفاخر .

ولن يتغنى هذا الكتاب بعظمة الماضي ، وعظمة الدين ذهبوا ، بل سيعطيهم حقهم بأعصاب باردة .

وقد لا يعجب أسلوبى هذا بعض المتحمسين ، الذين اعتادوا على شعر الفخر . ولكنى واثق من ان الحقائق المجردة ، التي تفوق كثيراً في عظمتها كل التصورات والتوقعات ، والتي سيرضاها هذا الكتاب ، هي الأسلوب الأمثل لعرض التاريخ بكل ما فيه من إيجابيات .

فليت هذا الكتاب يعطي فكرة أمينة عن أسلافنا العظماء هؤلاء دون حماس ودون تفاخر .

ولعل الكتاب ، يعجب عامة القراء ، ولا يقتصر على الأطباء ولا يقتصر على المؤرخين ، بل لعله يجد بين طلاب الطب الأرض الخصبة لنمو الاحساس بالتاريخ ، ولنمو ظاهرة حب تاريخ العلوم ، وخصوصاً تاريخ الطب .

نشأة الطب

آ- كيف مارمت كيمياء الإنسان الطب؟

ب- كيف ظهرت النظرية الطبيّة

١ - كيف مارس الإنسان الطب ؟

لعل مسألة الصحة والمرض ، من أقدم المسائل التي شغلت ذهن الإنسان . بل لعلها تأتي في الدرجة الثانية بعد مسألة تأمين الطعام ، والمأوى . بمعنى أن قلق الإنسان على نفسه ، مما قد يصيبه من مرض أو حدث مفاجيء ، كان قد أثار مخاوفه . إذ طالما أصيب الإنسان بالصياد القديم أصابات متفاوتة الشدة ، أثناء صراعه مع الحيوانات من أجل الغذاء . وطالما أصيب الإنسان أيضا ، من الحيوان المهاجم الذي يجاهد هو أيضا من أجل بقاء النوع ، ولقد كانت بعض هذه الإصابات ، قابلة للشفاء ، وبعضها كان قاتلا . فلا عجب إذن أن تكون ممارسة الاسعاف ، من أقدم ما احتاجه الإنسان ، بل لعل مهمة الاسعاف الطبي والجراحي ، كانت مهمة مطلوبة ، من كل الأفراد في المجتمعات البدائية .

فإن حاجة الإنسان إلى حفظ صحته ، ودفع أذى الجروح والرضوض عنه ، كانت حاجة أساسية ، جاءت مباشرة بعد احتياجاته الفيزيائية البدائية .

وإذا صح هذا الأمر ، وهو صحيح عند علماء الاجتماع ومؤرخي الإنسان القديم والسلالات البشرية ، إذا صح هذا ، فإن قدرا معيناً من التفكير يكون قد صاحب هذه الممارسة ، وهذا الاهتمام .

لابد أن يكون الإنسان القديم البدائي قد لاحظ بعض الملاحظات الذكية التي أفادته في مهمته هذه ولربما جرب أيضا ، وبما تجمعت لديه على مدى قصر أو طويل ، ملاحظات وتجارب ، فتراكمت عنده أولا ، ثم عند مجموعة من الناس متصلة به بعض هذه الأشكال من المعرفة العلمية ، ولا بد أن الإنسان القديم ، استعمل ذكائه في ابتكار بعض الحيل

او الاساليب لتجبير ساق مكسور لزميل ، في الصيد ، او لايقاف نرف من جرح قاطع ، لانسان شريك في المسكن ، هاجمه حيوان مفترس .

بل لعل هذا الانسان القديم ، تعلم كثيرا او قليلا من ملاحظاته وتجاربته مستعملا ذكائه ، ثم ذاكرته ، فتكونت مع الزمن ، وعلى مرور الاجيال حالة من المعرفة العلمية المتواضعة ، سمحت للانسان البدائي هذا بأن يمارس بعض اشكال الاسعاف .

فالممارسة الطبية قديمة اذن ، قديمة قدم الانسان نفسه ، ولا بد أن نميز هنا ، بين ودود الفعل الغريزية ، التي يلجأ اليها الانسان ، ويعرفها تماما كما يعرفها الحيوان ، وبين هذا الشكل من اشكال الممارسة الطبية المقتصرة على الانسان .

ولا داعي لايضاح المزيد حول هذا الامر ، واكتفي بذكر مثل واحد : فان نقاشا طويلا قد وقع بين مؤرخي العلم حول مسألة اعتبار عملية الولادة عند الانسان القديم عملا طبيا ، او عملا غريزيا .

واذا كان الاسعاف ، قد شغل حيزا من تفكير الانسان ، فلا بد أيضا أن الامراض الحادة مجهولة السبب ، قد دعت هذا الانسان الى أعمال الفكر والبحث عن سببها .

ب - كيف ظهرت النظرية الطبية ؟

ولا بد أيضا من القول أن التساؤل عن سبب الموت ، كان من المسائل التي لم تشغل ذهن الإنسان البدائي فحسب ، بل أدهشته ، وأثقلت عليه ، ولعل سيل الأسئلة التي طرحها هذا الإنسان على نفسه لم ينقطع ، بل ظلت الأسئلة تتوالى . آتية معها بأقدم التساؤلات الفلسفية التي وجهها الإنسان الى نفسه ، ولعل هذا العصر الذي تبلورت فيه هذه الأسئلة ، هو عصر ولادة الفلسفة ، والديانات القديمة ، والنظرية الطبية .

هذا العصر ، هو عصر البحث عن مصدر الخير ، ومصدر الشر ، سبب الحياة ، وسبب الموت ، سبب الصحة ، وسبب المرض .

وكما جمع خيال الإنسان بعقله ، وجعله يتصور كائنات ومخلوقات ما وراء الطبيعة ، عزا إليها القوى الخارقة في الكون ، وتصورها مسؤولة عن حركات الافلاك وتبدل الفصول وتعاقب الليل والنهار ، فانه أيضا جعل هذه الكائنات المطلقّة القوة مسؤولة أيضا عن الخير الذي يصيبه والشر الذي يعتريه ، وانتهى به المطاف الى ان جعل من نفسه اسيرا لهذه القوى ، فأصبحت هي السيدة في هذا الكون وهو المسود ، هي الخالقة ، وهو المخلوق ، هي الآلهة ، وهو المبد .

وفي ظل هذا النظام الذي تصوره الإنسان ، وجعل نفسه جزءا منه ، كان لابد من أن تكون بعض القوى المطلقّة مسؤولة عن الخير ، وبعضها مسؤولة عن الشر ، بعضها يرعى الصحة ، وبعضها يرعى المرض ، بعضها يحفظ الحياة ، وبعضها يسبب الموت .

وإذا عرف الإنسان مصدر سعادته ، ومصدر شقائه ، فإنه من الطبيعي إذن أن يتقرب الإنسان إلى هذه الآلهة الخيرة ، رقيقة القلب ، طالباً المزيد من الرعاية ودوام الصحة ، والنجاة من الشرور .

وطبيعي أن يتنافس الناس في هذا التقرب ، وطبيعي أيضاً أن يظهر الوسطاء بين الإنسان والآلهة ، يوهمون الإنسان المسكين ، أن طلباته لن تلبى بدون تدخلهم وشفاعتهم ، وأن الآلهة تجيد الإصغاء إليهم ، وتلبى برغباتهم .

وهكذا ظهرت طبقة جديدة بين الآلهة والناس ، لها قوة يظن أنها من السماء ، ولكن الإنسان هو الذي بايعها ، هو الذي خلقها .

هكذا خلق الإنسان آلهة ترى صحته ، وتحفظ سعادته ، تساعد الحامل في أشهر حملها الصعبة ، وترعاها عند ولادتها ، وهكذا خلق الإنسان طبقة من الكهان الذين يتوسطون بين هذه الآلهة ، وبين البشر .

وهكذا أيضاً ظهر الكاهن ، والطبيب ، الذي يصف الدواء ، ويقدم الدعاء ، والذي تركزت فيه قوى ميزته في مجتمعه ، بل وتجمعت عنده تجارب ، ومعارف ، جعلت منه رجل دين ، كما جعلت منه رجل علم .

وهكذا اتخذ الإنسان اللبiche ، وسيلة للتقرب إلى الآلهة .

وإذا كان عقل الإنسان قد وجد الراحة في هذه النظرية التي صاغها لنفسه ليفسر بها علاقته بالكون وأحداث الحياة ، فإن المزيد من التفكير كان من شأنه أن يسير عوالم أخرى من المجهول ، كان لابد للعقل من أن يبحث عن كنه المرض ، وعن آلية حدوثه .

لقد كان من السهل تفسير وقوع ما نسميه اليوم بالجوارح الطارئة ، كالغرق ، أو الكسر ، أو الجرح ، ولكن الأمراض الأخرى كانت ما تزال تبحث عن تفسير .

لقد لاحظ الإنسان البسيط اقتران بعض الامراض بفصول السنة ، كما لاحظ علاقة بعض الامراض الاخرى بالمناخ ، فتصور أن الصحة ان هي الا توازن سليم لمكونات الجسم الاساسية . وأن التوازن هذا هو الصحة ، وأن اختلال التوازن هو المرض . وكما أن الكون يتشكل - حسب نظرية الاقدمين - من عناصر أربعة هي : الماء ، والهواء ، والتراب ، والنار . وأن مؤثرات اخرى ، أربعة ، تؤثر في العالم ، وفي الكائنات هي : الرطوبة ، والجفاف (اليبس) ، والحرارة ، والبرودة . فكذا ان هذه العناصر الاساسية في الكون ، لن تبقى بمعزل عن التأثير في جسم الانسان .

لذلك فان جسم الانسان بدوره يتكون من اخلاط أربعة : الدم ، والبلغم ، والسوداء ، والصفراء . ويخضع بدوره أيضا الى مؤثرات : الحر ، والبرد ، والرطوبة ، واليبس . ويفعل في جسمه تأثير الفصول : الصيف ، والشتاء ، والخريف ، والربيع .

والطبيب : عليه أن يحفظ توازن هذه الاخلاط ، لان توازنها هو الصحة ، ولان اختلال هذا التوازن هو المرض .

لقد ظهرت اولى الممارسات الطبية عند اقدم المجتمعات البشرية البدائية ، وفيها ظهرت شخصية الكاهن الطبيب ، ثم تطورت هذه الممارسة عند الحضارات المفرقة في القدم ، وعند هذه الحضارات ، ظهرت تباشر المهنة الطبية بمعناها الأكثر تطورا .

فإذا وصلنا الى حضارة بلاد النيل ، وبلاد ما بين النهرين ، صادفنا المجتمع الأكثر تطورا ، حيث ظهرت المهن الطبية ، والاختصاص في الطب ، وطبقات الاطباء من حيث اهميتهم الاجتماعية ، كما صادفنا معرفة علمية متطورة بالأعشاب الطبية ، واصول بعض انواع الجراحة ، كما صادفنا الانهاسات الاولى للنظريات الطبية المتكاملة ، التي أتبع لها ان تأخذ شكلها النهائي عند الاغريق .



تأثر الطب ، كما تأثر الفن والتفكير ، في مصر القديمة بالنظرية التي حكمت المجتمع ، نظرية البعث بعد الموت ، لذلك حرص الناس ، على أن لا تبلى أجسامهم بعد دفنها ، لكي تكون جديرة يوم القيامة بأن تحل فيها الروح من جديد ، لذلك ظهر التحنيط ، وأصبح علما راقيا ، مازلنا حتى اليوم نعجز أن نجاريه في حفظ الجثث من البلى ، ولذلك بنيت الاهرام لكي تحفظ للفرعون - ظل الله على الارض - جثته ، وجثث افراد عائلته بعيدة عن زحمة الناس العاديين .

واتيح لمصر القديمة من المعارف الطبية ، والاطلاع على تأثير الاعشاب على الجسم ، ومن القدرة على بعض التداخلات الجراحية ، وكذلك من القدرة على التأثير النفسي ، اتيح لها قدر اذهل العالم اليوناني حينما اطلع عليه بعض قدماء عشايي اليونان ، فقال مؤرخ معاصر لهؤلاء : ان مصر مخزن لا ينضب من الاعشاب الطبية .

ولم يكن ذهول العالم اقل من ذلك ، حينما اكتشفت بعض الكتب الطبية المصرية القديمة مكتوبة على اوراق البردى ، فدعيت (في القرن التاسع عشر) بالبرديات او القراطيس ، واتيح للعالم المصري ان يتعرف على ادوية يعود عهد الانسان بها الى ستة آلاف عام ، ما يزال بعضها مستعملا في الطب الحديث حتى اليوم .

وازداد عجب الباحثين المعاصرين ، الذين يعنون بدراسة الانسان القديم ، والسلاات البشرية ، والحضارات البالية ، ازداد عجبهم كيف اتيح للمجتمع المصري القديم ان يعرف كل هذا ؟ وتأملوا كم من القرون قد مر على الانسان البدائي ، حتى تراكمت لديه كل هذه المعلومات قبل عصر التدوين .

وفي مصر القديمة ، ظهر الاختصاص الطبي ، وظهرت طبقات بين
الاطباء بعضهم للبلاط وبعضهم للشرفاء ، وبعضهم للعامه .

ونستطيع حتى الآن التعرف على بعض الامراض التي انتشرت في مصر
القديمة ، والتي عانى الناس منها ، فاذا درسنا الفن المصري دراسة
اخرى - من وجهة نظر مؤرخ الطب - وتأملنا الناس الذين تظهر
صورهم على جدران المعابد ، وحجبتنا أعيننا عن ان يبهرها الابتذاع
والجمال المتجلمان في الفن المصري القديم ، اذا قمنا بهذه الدراسة ، نجد
انفسنا امام حالات مرضية طريقة اجاد الرسامون والنحاتون في تصويرها
وتخليدها .

واذا كان ارتقاء الطب يعتمد على فهم للتشريح ووظائف الاعضاء
والامراض ، فان قدماء المصريين اتجهوا الى جهاز الدوران ، فاعتبروا
العروق التي تخرج من القلب هي التي تحمل الحياة والسوائل المختلفة
الى اجزاء الجسم البعيدة . ولذلك احتل الدم مكانا متميزا في (النظرية
الطبية المصرية) ، وكذلك (القلب) ، فلا عجب ان يظل القلب حتى في
اللغات الحديثة مركزا متميزا للمواظف البشرية ، (انكسر قلب فلان)
(وفلان طيب القلب) ، (وفلان اضاع قلبه) .

وفي الجهة الاخرى من شرقي وطننا العربي تطورت النظرية
بشكل آخر ، فاحتل الكبد مكان الصدارة في تفكير الطبيب القديم .

وعلى الرغم من ان الوثائق التي نملكها عن الطب القديم في بلاد ما بين
النهرين تقل عن مثيلاتها التي نملكها عن مصر ، فانها تعطي قدراً من
المعلومات يتيح لنا ان نعرف انهم في الشرق قد استخدموا الاعشاب
الطبية للمعالجة . شأنهم في ذلك شأن مصر ، يل ومارسوا العمل
الجراحي وخاصة على العين ، ولذلك نجد في قوانين حمورابي ايضا
اشارة واضحة الى ذلك .

وموضوع جراحة العين هذا الذي نسمع عنه في بلاد الرافدين لا نرى مقابله في مصر القديمة (في حدود وثائقنا) .

ولقد تطورت حضارتا الرافدين ومصر ، في نفس الوقت تقريبا ، لذلك فإننا نلمس التشابه الشديد بين الحضارتين ، هذا التشابه الذي جاء ايضا نتيجة للجوار والصلات الواسعة في زمني السلم والحرب ، هذا التشابه الذي يجعل وصف امراض العين في كلا الحضارتين متقاربا .

حتى أسماء الاعراض والأمراض تعطينا أمثلة من التشابه ، كضعف البصر ، وآلم العين ، والتهابها ، والدماغ ، والنزف تحت الملتحمة .

ولقد لاحظ مؤرخو الطب تأثير الفرس بكلتا هاتين الحضارتين حينما دخلت جيوشهم الى بلادنا ، وكذلك لاحظوا انتقال هذه المعلومات الطبية مترجمة الى الآرامية أولا ، ثم الى الآفريقية أيام الاحتلال اليوناني .

كما أشاروا الى الروح العظيمة لهذه الامجاد العلمية الآتية من الشرق ، والتي سطعت وتوهجت وانبثقت الطريق للحضارات اللاحقة ، وتابعوا ايضا من خلال دراساتهم التاريخية والمقارنة هذه الترجمات المتسلسلة للمعارف التي سموها « بالمعارف الشرقية » اي معارف بلادنا من وادي النيل وبلاد ما بين النهرين .

ولقد ظهر بأحصاء المصطلحات الفنية في طب العين (أسماء الاعراض واسماء الأمراض) . ان اجدادنا في مصر القديمة وفي العراق القديم ذكروا في وثائقهم الطبية التي وصلت إلينا ما يقارب الثلاثين مصطلحا ، وإذا كان عهد هذه المدونات الطبية يعود الى القرن السادس عشر قبل الميلاد ، فان مصدرها الحقيقي هو الألفان الرابع والثالث قبل الميلاد .

ونظرا لندرة الوثائق المتوفرة لنا عن هذه الحقيقة القديمة ، فإنه يتعذر علينا ان نتابع عملية تطور المعرفة الطبية في هذه الفترة من حياة شعبنا .

الا أننا نعرف - في حدود ما نملك من وثائق - أن ابقراط (الذي عاش بعد ألف عام من تاريخ أحداث هذه الوثائق الشرقية) لم يذكر من المصطلحات إلا العدد نفسه ، وإن كان تصنيفه لها جاء أكثر تقدماً .

وإذا كانت بلادنا ما تزال تحفل بأسرار حضارتها القديمة ، وإذا كانت البعثات الأثرية تكتشف فيها بين الحين والآخر كنوزاً من الحضارة والعلم ، كوثائق المكتبات القديمة على الألواح الإجرية ، أو أوراق البردي المدفونة في القبور ، فلعل المستقبل يعطينا المزيد من المعلومات ، بحيث تصبح الكتابة في هذا الحقل أكثر غنى وأكثر دقة .

ولم يكن تطور الحضارة في عصور التاريخ الفأبرة وقفاً على مكان دون مكان آخر من العالم القديم . فقد كان الصين أو الهند مثلاً حضارة عريقة . ولا نريد في هذا المقام التعرض إلى أكثر من مجرد الإشارة إلى هذا ، احتراماً للعقل البشري الذي لم يكن قاصراً عن التفكير والملاحظة العلمية في أي مكان وأي زمان . إلا أننا يجب أن نقول مادماً قد اعطينا مثلاً عن المصطلحات . . العينية الفنية : أن طب العين في الهند مثلاً في حدود بداية القرن الأول الميلادي كان متطوراً جداً .

وإذا كان عدد هذه المصطلحات يعطي فكرة مقبولة عن مدى هذا التطور باعتباره دليلاً على دقة الوصف والملاحظة ، وباعتباره مقياساً لارتقاء علم التشخيص ، فإنه من المناسب أن نذكر أن عدد هذه المصطلحات عند سلزوس اليوناني (الذي عاش سنة ٢٨ م) لم يتجاوز الثلاثين مصطلحاً ، بينما عرف الهنود في نفس العصر حوالى اثنان مائة مصطلحاً .



أجسادنا العرب

ان شطف العيش في صحراء وبادية جزيرة العرب دفع السكان الى التنقل طلبا للماء والكلأ ، واستقر بعض هؤلاء العرب على تخوم الجزيرة ، وعلى سيف البادية ، متصلين بالحضارات التي تحيط بجزيرتهم ، بينما وصل البعض الى مواطن هذه الحضارات ، فذاو فيها حيناً ، واذابوها فيهم حيناً آخر .

وبرزت هذه الظاهرة منذ اقدم العصور ، فاستقرت موجات من عرب الجزيرة في بلاد ما بين النهرين وفي الجزيرة الفراتية وفي بلاد الشام .

اتيح لهؤلاء البدو ان ينصهروا في المجتمع الذي وصلوا اليه ، والذي كان مجتمعا مستقرا ، وتطورت هذه المجتمعات المستقرة الى مجتمعات اكثر تحضرا .

واستمرت ظاهرة قدوم بدو الجزيرة العربية الى هذه المجتمعات المتقدمة ، فتأثروا بها وتأثرت بهم . وازدادت هذه المجتمعات تقدما بمرور الزمن ، واصبحت بالتالي اكثر قدرة على اجتذاب المزيد من الهجرات البدوية اليها بقصد الاستقرار فيها ، والذوبان في سكانها المتدنيين ، او بقصد الغزو والعودة الى البادية ، او بقصد الاستقرار في جوار هذه الحضارات والاستفادة من مميزات الجيرة هذه .

وتكررت هذه الظاهرة عبر مئات السنين فكان من نتيجة هذه العملية السكانية ان المجتمع السومري الذي كان يتمتع بقسط عال من الحضارة ، والذي لم يكن اصل سكانه في الازمنة الاقدم من بدو جزيرة العرب هؤلاء ، بل كان العرب فيه هم القادمون من الجنوب دوما ، هذا المجتمع

الذي ازدهر في الألف الرابع قبل الميلاد لم يلبث أن أصبح أكاديا في الألف الثالث ، دون أن تطرا على مميزاته الحضارية تغيرات هامة ، وهذا المجتمع الأكادي ، هو مجتمع يغلب عليه الطابع « العربي » طابع الاقوام الآتية من جزيرة العرب .

وتكررت هذه العملية ، فاذا بلاد ما بين النهرين ، التي كانت أكادية في الألف الثالث ، تصبح اشورية ، أو بابلية في الألف الثاني ، أي تتغير فيها نسبة الاقوام الآتية من جزيرة العرب ، وتتغير فيها مراكز القوى .

ولقد سمي المؤرخون هؤلاء الأكاديين والآشوريين والبابليين بالساميين لانهم من « نسل سام » ، أي لانهم من جزيرة العرب ، التي تكاثر فيها أبناء سام ، ولاحظ هؤلاء المؤرخون الصلة الحضارية واللفوية التي تربط هؤلاء الاقوام ، كما لاحظوا استمرار المميزات الرئيسية لهذا المجتمع المتمدن في بلاد ما بين النهرين منذ العهد السومري أي منذ العهد قبل السامي .

واذا اتيح لهذه الهجرات الكثيفة ان تسيطر ، فتعطي لحضارات ما بين النهرين اسمها : (الأكاديين .. الآشوريين .. البابليين ..) قرب هجرة أخرى من قبائل بدوية جاءت من الجنوب إلى أرض ما بين النهرين ، فذابت في هذا المجتمع الغني بالسكان ، ولم يبق لها أثر ، ورب قبائل غيرها جاءت غازية وعادت . ورب غاز ظفر بغزو ، ورب غاز هلك دونه .

وأذا كانت حضارة وادي الرافدين العريقة قد اجتذبت اقواما من جزيرة العرب ، فلا بد انها اجتذبت أيضا اقواما من سكان البلاد الجبلية في الشمال والشرق ، ولكن العنصر المسيطر دائما كان عنصر التقدم الحضاري ، وان الاقوام التي جاءت الى هذا المجتمع ، جاءت لتذوب من حيث النتيجة ، حتى المنتصر (المتخلف حضاريا) كان يذوب في هذا المجتمع في العنصر المهزوم ، المتفوق حضاريا . وإذا كان البقاء دائما

للاصلاح ، فان البقاء هنا عسكريا كان للاقوى ، وحضاريا ، كان للحضارة
الاعرق .

واذا كان التطور التاريخي قد ادى الى انتصار العنصر العربي ،
فسميت الحضارة باسمه في بلاد ما بين النهرين ، منذ العهد الاكادي ،
فان هذا التطور لم يسمح بانتصار العنصر العربي ، الا في من الجزيرة
الى وادي النيل ، بل ظل العنصر «المصري القديم» هو العنصر المسيطر ،
وان اصبحت لغة المصريين القدماء متأثرة بشدة بالتأثر بلغات جزيرة
العرب . ففي دراسة لهذه اللغة ، مع مقارنة لها بلغات الاقوام العربية
(السامية) ظهر ان هذا التأثير ظل يزداد قرنا بعد قرن . . مشيرا ليس
فقط الى صلة المصريين القدماء بالشام والعراق ، بل مشيرا ايضا الى
تسرب هؤلاء البدو من الجزيرة الى وادي النيل الغني المتحضر المستقر .

اما في بلاد الشام فان العنصر العربي سيطر ايضا منذ اقدم العصور ،
وظهرت حضارة الكنعانيين والاراميين المتطورة في بلاد الشام ، والمتصلة
ببلاد النهرين من جهة وبوادي النيل من جهة اخرى ، وببادية العرب
من الجهة الثالثة .

وظلت هذه الظاهرة الاجتماعية مستمرة عبر القرون .

واذا كانت الدراسات اللغوية المقارنة تكشف لنا بعض المفاجآت ،
فان احدي هذه الدراسات اظهرت شيئا عجيبا بين لغات جزيرة العرب
الجنوبية ، وبين لغات سكان بلاد القبائل في شمال افريقيا ، مشيرة
الى ان ظاهرة انتقال السكان البدو من قلب الجزيرة باتجاه سيناء ومصر ،
قد استمرت باتجاه شمال افريقيا ، اما لان هؤلاء البدو آثروا العيش في
صحاري شمال افريقيا والتي تشبه في مناخها بلادهم ، او لانهم اجبروا
على الحركة غربا .

وبكلمة أوضح يمكن لنا أن نتصور حادثة حركة سكانية ، من الشرق إلى الغرب في شمال إفريقيا ، بدليل هذه الظواهر اللغوية وهذا التشابه في العقلية ، تعبر عنه قواعد اللغة ، مثلما تعبر عنه اللفاظ .

هذه الحركة السكانية جاءت أقدم بكثير ، ولكن في نفس اتجاه القبائل البدوية التي جاءت مع الفتح الإسلامي أو قبائل بني هلال متأخرا .

أي أن حركة السكان البدو من قلب الجزيرة ، كانت تسير باتجاه الشمال الشرقي إلى بلاد الرافدين ، وباتجاه الشمال إلى بلاد الشام ، وباتجاه الشمال الغربي إلى شمال إفريقيا .

هذه الحركة ، التي انتبه إليها العلماء منذ القديم ، فشبهاوا - من أجلها - جزيرة العرب بالكأس التي تمتلئ بالماء ثم تفيض . .

هذه الحركة ، كان من شأنها أنها قربت أوجه التشبه بين هذه البلدان الشاسعة الامتداد حضاريا ولغويا ، فسادها من حيث النتيجة شيء من التجانس في تقاليد السكان وثقافتهم وحضارتهم وعقليتهم .

هذا التجانس ، هو الذي جعل الفتوحات الفارسية واليونانية قصيرة العمر في هذه البلاد التي اتسمت بسمات خاصة ومتشابهة ، وهو الذي جعل العنصر الفارسي أو العنصر اليوناني غريبا عن مجتمع هذه البلاد ، التي لم يشأ أحد من المؤرخين الأجانب أن يسميها باسم أوضح .

وكان أكثر ما تكرم به المؤرخون أن سموا هذه الحضارات « بالسامية » ولم « يفامر » أي واحد منهم فيسميها « بالعربية » . ولا أدري لماذا لم يمس هذا الاتجاه إلى حد تسمية جزيرة العرب « بالجزيرة السامية » ؟!

ولقد ظلت هذه البلاد « العربية » متقدمة حضاريا - منذ الألف الرابع قبل الميلاد - ولم تذب فيها الحضارة رغم كل تقلبات الزمن .

رغم الحروب ، والابوثة ، والكوارث التي حلت بها ، كما تحل بأي بقعة
اخرى من بقاع العالم .

ولعل هذا التقدم هو الذي اعطى للهلينية وصفا جديدا ، ومستوى
جديدا حينما وصل الاغريق الى بلادنا ، فظهر ما اصطلح عليه المؤرخون
حديثا باسم الهيلنستيه . هذا التقدم الذي عبر عنه بعض المؤرخون دون
« عقدة » فقالوا « المؤثرات الشرقية » على الحضارة الهيلينية ..

ولقد ظلت هذه الحال سائدة في بلادنا الى ان جاء الاسلام ، وانتصرت
اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم ، ولغة الدولة التي سيطرت على بلاد
العرب ، والتي حررتها نهائيا من فارس وبيزنطة .

وعلى هذا فاننا نفهم ان صلة سكان جزيرة العرب باخوتهم في الشمال
والشمال الشرقي والشمال الغربي لم تنقطع منذ اقدم العصور .

وعلى هذا فاننا نفهم ايضا كيف ولماذا استقرت بعض الاقوام العربية
قبل الاسلام ، في الحيرة ، وتدمر ، والبصرة ، وبلاد غسان ، واقامت
مجتمعات لها صفات الدول المتقدمة ، كالفرس والروم ، من جهة ، ولها
صفات بدو قلب الجزيرة العربية من جهة اخرى .

ومن هنا فان دور هذه الدويلات العربية وتأثيرها على بدو قلب
الجزيرة لا يمكن ان يهمل او يتجاهل حين الكتابة في تاريخ العلم عند
العرب .

وكذلك فقد اصبح واضحا لمؤرخي العلوم - مثل غيرهم من المؤرخين
- ان ما اصطلح على تسميته « بعصر الجاهلية » لا يمكن ان يستقيم
فهمه الا بالمعنى الذي وردت فيه الكلمة في التنزيل العزيز ، وان كلمة
« جاهلية » لغة ، يجب ان تفهم على انها - ضد العلم - وليس - ضد
العلم - ..

يحق لنا ، بل يجب علينا ، أن نتصور بدوي الصحراء هذا الذي
أملت عليه بيئته أن يعتمد على نفسه في حله وترحاله - جيلا بعد جيل -
أن نتصوره فارسا جاهزا للدفاع عن نفسه دائما ، فالبقاء للأقوى ،
متقشفا حيث أن البيئة تبخل عليه بالطعام والشراب ، شاعرا يجد الوقت
الكافي لأن يحلم وأن يفكر وفوق ذلك وقبل ذلك انسانا ذكيا .

لذلك تكلم وكتب الكثيرون عن (ذكاء البدوي) .

والصحراء هي التي شجذت هذا الذكاء وشذبتنه .

فالبدوي مضطر الى التنقل اطراف الليل وأثناء النهار . فهو ملزم
بالاعتماد على معرفة حركات الكواكب ليضبط الوقت ، ويستدل بها
على الاتجاه .

وهو وحيد في الطريق غالبا ، او مع كوكبة قليلة العدد من رفاقه
وعليه أن يعتمد على نفسه في اعمال الاسعاف الطبي والجراحي .

وهو مضطر الى التعرف على الخصائص الغذائية والدوائية لامشاب
الصحراء ، التي كثيرا ما كان ملزما عليه أن يتعامل معها .

وهو قبل هذا كله - بسبب توحده - ملزم أيضا باتخاذ القرارات
السريعة والحاسمة التي لا تعرف التردد ، فالحياة في الصحراء لا تتحمل
ترددا ولا ضعفا .

ان هذا التأثير من البيئة على ذهن سكان الصحراء وعلى سلوكهم ،
كأن عقليته خاصة بهم ، عقلية تجيد الملاحظة ، والمشاهدة ، وتعرف
كيف تخزن المعلومات ، عقلية من حقها أن تنعت بأنها اجادت قسطا من
المراقبة العلمية ، ونجم عن أسلوب الحياة هذا اضافة الى ذلك شيوع
وانتشار للمعرفة بين معظم الناس ، واحترام للعقل والفكر .

كما نجم عنه ظهور شعور عال من الاحساس بالكرامة عند الفرد ،
زادته عنفا ، اخلاق البادية وتقاليد القبيلة ، وحياة الغزو والحرب ، فتطور
مجتمع البادية في غير اتجاه تطور المجتمعات المستقرة ، مجتمعات
الطبقات المستغلة ، وظهرت في هذا المجتمع ميزات خاصة ، فكل فرد في
مجتمع البدو كان محاربا كريما ، يتمتع بمستوى عال من الانفة ، لا يقبل
الضيم ، ولا يرضى بالعار ، ويموت دون شرفه او كرامته او مثله .

لذلك تبلورت في المجتمع البدوي في زمن الجاهلية اخلاق سامية ،
ومثل عليها ، ظلت هي الاساس في التعامل بين الناس ، ونتعارف عليها
اليوم بانها « الاخلاق العربية » . هذه الاخلاق التي تحتم على البدوي ان
يقري الضيف ، ويحمي الضعيف ، ويرعى الدمام ، وان يموت من اجل
مبادئه .

ولقد تطور مجتمع البدو في قلب شبه الجزيرة متأخرا عن تطور مجتمع
اليمن والحيرة وغان ، فجاء تطور مكة ويشرب متأخرا ، وفي الجاهلية
ظهرت التجارة والاسواق وعرف الناس طرقا للقوافل تصلهم بجيرانهم .

كل ذلك يشير الى ان هؤلاء العرب (البدو) الذين يتحدث عنهم المؤرخون
حينما يؤرخون للحياة العقلية والعلمية ، او حينما يؤرخون للعلوم العربية
- وخاصة الطب - لم يكونوا معزولين عن العالم المتحضر المحيط بهم .
ولم يكونوا انفسهم قليلي التطور الذهني . بل ان شيوع المعرفة العلمية
عندهم ، ربما كان احسن من بعض طبقات المجتمع المستقر التي تسيطر
عليه عقلية الكهانة التي يكون فيها العلم حكرا على فئة مختارة من الطبقات
الارقي .

والدليل على ذلك هو تطور اللغة العربية ، وغناها بالالفاظ المترادفة التي
تشير الى ثروة ذهنية ، والى نشاط في المعرفة العلمية ، مما يبرهن على
ان عقل العربي في الجاهلية حيث تطورت اللغة العربية ، لم يكن عاجزا
عن ادراك الفروق الدقيقة بين المعاني ، وبالتالي عبر عن هذه الفروق ،
بوفرة المترادفات ، وغنى التعابير ، ومرونة اللغة .

فغنى مفردات اللغة العربية ، وتطور قواعدها ، هو انعكاس واضح لارتقاء المعرفة ، ونشاط الذهن ، كل هذا حدث في عصر الجاهلية ، فطبع اللغة العربية منذ البداية بطابع الفنى والتنوع والقدرة على التعبير والإبداع ، والجاهزية للتعبير عن شتى المعاني الجديدة .

لذلك فقد وجدت الديانتان اليهودية والمسيحية - حينما وصلتا الى بلاد العرب - لغة قادرة على التعبير عن المعاني الجديدة التي جاءت بها ، بل ان الصراع المذهبي . وجد في هذه اللغة ايضا التعبيرات التي احتاجها .

ثم جاء الاسلام ، فوسعت هذه اللغة المتطورة كل المعاني التي جاء بها .

ثم جاء عصر ترجمة العلوم من لغة الاغريق ، ومن اللغة الارامية او السوريتية ، (التي يسميها المؤرخون بالسريانية) الى اللغة العربية ، فوجد التراجع في هذه اللغة قدرة وطواعية عجيبتين لاستيعاب مفردات شتى العلوم .

واذا ظهر بين الترجمة من عجز عن القيام بمهمته ، فلانه لم يكن متمكنا من العربية .

وجاء عصر الازدهار ، وظهرت في العربية معجمات وقواميس اتسعت لشتى العلوم ، ثم ظهرت المؤلفات العربية التي تلقفها العالم ، فترجمها بدوره الى لغاته ، واستفاد منها .

وكانت دولة الاسلام ، دولة المساواة بين العربي والاعجمي ، دولة طلب العلم من المهد الى اللحد ، ايا كان مصدره .

لذلك نفهم كيف جاء علماء هذه الدولة من شتى الاجناس والعروق ، ومن مختلف الديانات ، دون عقد ، ودون تمييز .

وهذه ظاهرة « سجلها » معظم المؤرخين ، وإن كان الذين فهموها ظل عددهم محدودا ، لأنهم لم يفهموا روح الاسلام الحقيقية ، ولم يفهموا التكوين الحضاري للأمة العربية . وظل مفهوم الدين بالنسبة إليهم هو مفهوم « الدين » كما عرفوه في أوروبا ، وظل مفهوم القومية عندهم هو مفهوم « القومية » كما عرفوه في أوروبا ، ولم يتمتع هؤلاء المؤرخون الذين ربما كان بعضهم قد أحب العرب ، وأحب المسلمين ، لم يتمتع بفهم هذه الظاهرة التاريخية ، التي ربما انفردت بها امتنا بين الأمم .

لذلك فنحن العرب ، نحس بأننا ورثة كل هذه الحضارات التي ازدهرت على أرضنا ، بدءا من سومر في أقصى الشرق ، ومرورا بمصر القديمة ، إلى أقصى جبال الأطلس ، وصحراء أفريقيا .

ونحس كذلك بأن هؤلاء جميعا هم أجدادنا .

وهذا لا يتناقض مع احساسنا العام بالعروبة ، بل يغذيه ويعينه ، ويعطيه معنى إنسانيا رفيعا .

وعلى هذا فإن أم حروب الطبيب الذي اشتهر في مصر القديمة ، حتى ألته الناس بعد وفاته هو جدنا ، تماما كما هو حنين بن إسحق « البدوي » الذي جاء من الحيرة أو يوحنا بن ماسويه « السرياني » الذي جاء من جند يسابور ، أو الرازي الذي جاء من إيران ، وماسرجويه البصري اليهودي هو جدنا أيضا ، مثلما علي بن عيسى كحال بغداد النصراني ، هو جدنا أيضا ، يقفان على نفس المستوى مثلهما مثل ثابت بن قره الصابي أو ابن النفيس الفقيه المسلم .

هذا الاحساس ، يعطي لقوميتنا العربية ، طعما خاصا ، إنسانيا ، لا يكاد يحس به ولا يفهمه كثير من المؤرخين الأجانب الذين حاولوا أن يؤرخوا للعلوم العربية .

هذا الاحساس هو ثمرة تربية سامية ، وتعاليم نبيلة ، جاء بها الاسلام . ولقد أردت في هذه المقدمة البسيطة أن أعرض فهمي المتواضع لمعنى « عرب » ولمعنى « العلوم العربية » « والطب العربي » .

وإذا أراد بعض المؤرخين أن يقصروا البحث على المرحلة التي جاءت بعد ظهور الاسلام ، فيسمونها بالمرحلة العربية أو الاسلامية تمييزاً لها عن المراحل التي سبقتها ، فإن هذا مقبول من وجهة نظر واحدة ، هي حق المدارس في تقسيم البحث إلى أقسام لتسهيل الدراسة ، أما تأريخنا فمتواصل مثل تاريخ غيرنا ، والتاريخ لا يعرف الانقطاع .

وأنا اسمي هذه المرحلة إذا شئتم ، المرحلة الاسلامية من التاريخ العربي ، أي المرحلة التي بدأت بظهور الاسلام .

وإذا كان الاسلام قد جاء من السماء ، فإنه جاء على قوم موجودين قبل الرسالة أسمهم العرب وبلسان عربي مبين ، هؤلاء القوم يبدأ تاريخهم بطبيعة الحال قبل الاسلام بألاف السنين .

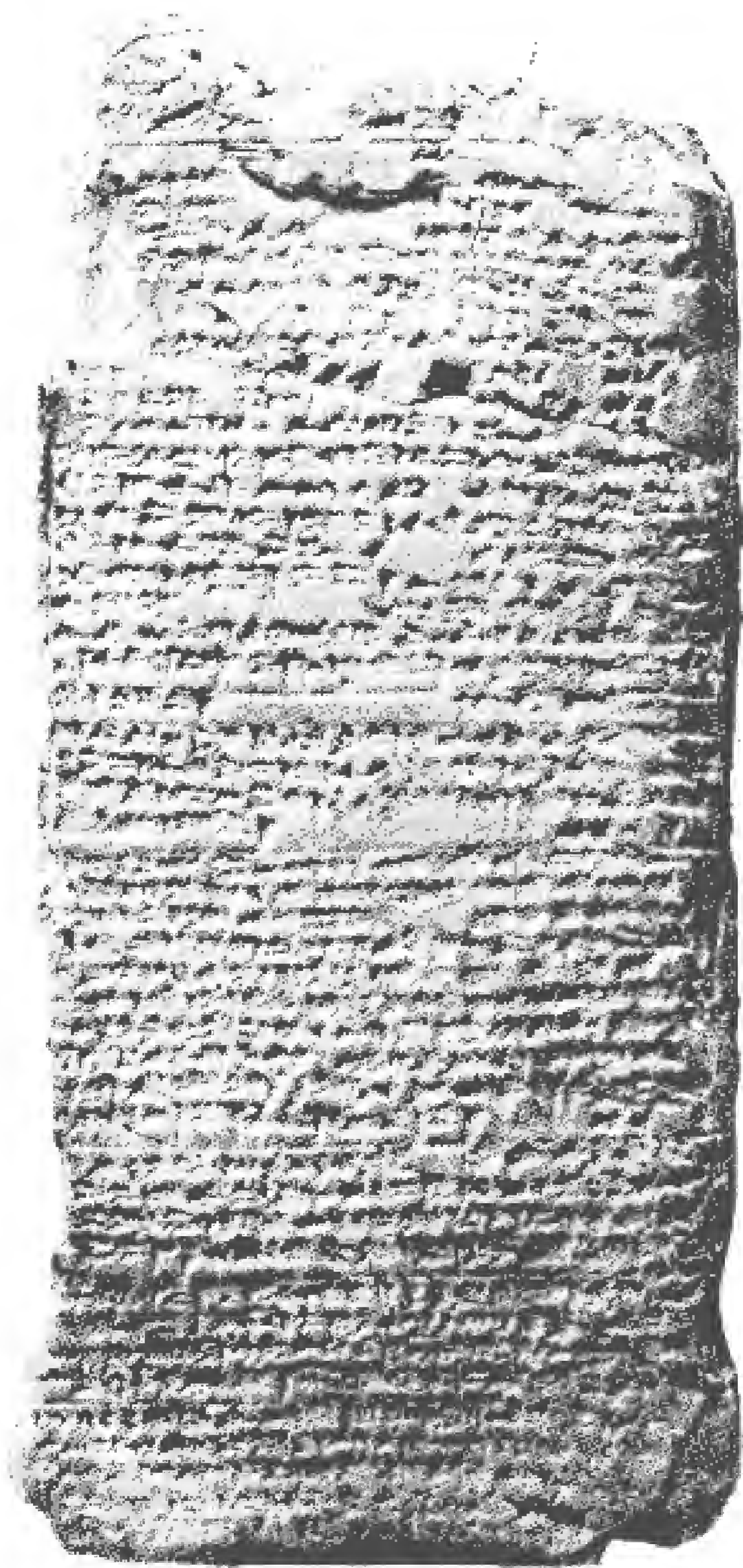
ولم يأت الاسلام ليميزهم عن غيرهم بل ساوى بينهم ، وبين سائر الشعوب ، على الرغم من أن العرب قد كانوا أداة انتشار الاسلام ، وأداة انتصاره .

وإذا كانت بلادنا مقسمة إدارياً قبل مجيء الاسلام ، فيها عديد من الدول وتخضع لنفوذ عدد من الامبراطوريات ، وجاء الاسلام فوحدتها فإنه جاء ليوحدتها إلى الأبد ، وليس لحقبة من حقبة الدهر ، وجاء ليضمن لمواطني هذه البلاد المساواة والحرية والكرامة .

لذلك لا عجب إذا ذكرت في هذا الكتاب ، أجدادنا أطباء الصين ، بادئا بأقدمهم فأنني أحس بأننا - نحن العرب - ورثة الحضارة والعلم الذين بنى صرحيهما هؤلاء الأجداد منذ أقدم العصور .

فإذا لم تكن نحن - العرب - ورثة مصر القديمة ، وبلاد الرافدين القديمة ، فمن يكون الوريث ؟

ولا عجب أيضاً أن يكون من جملة أجدادنا : الطبري ، والفارسي ، والبيدوي ، والسرياني ، وكذلك الصابئي ، واليهودي والمسيحي ، والمسلم .



٢ - نصّ طبي من بلاد الرافدين - مكتوب على الأجر .



اطباء العين في مصر القديمة

قام اجدادنا في مصر بانجاز عظيم في تاريخ تطور الطب ، فان طب العين قد انفصل في مصر القديمة عن الطب ، وأصبح اختصاصا مستقلا .

وكان طبيب العيون في المجتمع المصري شخصية محترمة تتمتع بسمعة ونفوذ الطبيب الباطني ، وظلت هذه المهنة المتخصصة محترمة منذ ذلك الوقت عبر العصور ، رغم ان كلمة (طبيب عيون) في العصور الاغريقية ، والرومانية ، والبيزنطية ، لم يكن لها نفس الوقع الذي كان لكلمة (الطبيب) ، فان طبيب العيون اثنى في المجتمع الطبي من حيث تسلسل الاهمية في الدرجة الاخيرة .

ولقد وصل الينا الكثير من المعلومات التي عرفها اطباء العيون في العصر المصري القديم ، يوم ظهرت الى النور البرديات المكتوبة في الالف الثاني قبل الميلاد ، والتي كانت بدورها منقولة عن برديات اقدم بالالف عام أو يزيد .

ونقد وصف المصريون القدماء الكثير من امراض العين ، وعرفوا العديد من الاعشاب للمداواة العينية ، كما استعملوا ادوية من اصل ممدني او حيواني ، وعرفوا بعض الطرق الجراحية .

ولقد استفاد الاغريق كثيرا من الطب المصري القديم بشهادة المؤرخين الاغريق القدماء ، الذين اتبح لهم ان يعرفوا مصر .

اطباء بلاد ما بين النهرين

وفي اقصى شرق وطننا ظهر التخصص ايضا ، وفي حقبة مبكرة من الزمن .

الا ان شيئا آخر اهدته بلاد ما بين النهرين الى البشرية في مسارها الطويل من اجل التقدم ، والى تطور الطب عموما ، وهو ظهور القوانين التي تنظم المهن الطبية ، والتي تحدد اجور الاطباء واتعايبهم عن المداواة ، وعن العمليات الجراحية ، والتي تفرض عقوبة صارمة على الطبيب الذي يعالج مرضا لا يستطيع معالجته فيؤدي تدخله الى ضياع البصر .

وقد تكون هذه القوانين صارمة ، وربما قاسية او مجحفة بحق الطبيب . ولكنها كانت تشكل رادعا حقيقيا ضد الادعياء الذين يزعمون انهم قادرون على ممارسة المهنة الطبية .

ولقد ظل هؤلاء الجهلة الادعياء عبئا على الاطباء والمرضى ، الى ان جاء عهد التدريس الطبي ، وعهد الامتحان الطبي ، حيث أصبحت الدولة هي المسؤولة عن منح الاجازة الطبية ، والسماح بالممارسة للأطباء وللأخصائيين منهم ، ولكن هذه المرحلة جاءت متأخرة في القرن العاشر الميلادي وفي بغداد على وجه التحديد .

الا ان قانون العقوبات ، كان الوسيلة الوحيدة للحد من اذى هؤلاء « الدجالين » الذين يزعمون قدرتهم على شفاء الناس .

وكان لبلاد ما بين النهرين شرف ظهور هذا القانون فيها ، وقد جاءت نصوص هذا القانون في شريعة حمورابي ، الا اننا نعرف ان هذه القوانين التي صاغها حمورابي ، انما هي نتيجة تطور طويل فهي الحلقة الأخيرة في سلسلة قوانين اكثر بدائية .

زينب طيبة بني اود

لقد اصبح من الواضح لنا ان العرب في جزيرتهم ، ايام الجاهلية وقبل ذلك كانوا على درجة معينة من الاطلاع على الفنون الطبية ، ولعل الكشف الحديثة في اليمن ، وساحل البحرين ، تعطينا وثائق جديدة تدعم هذا الرأي .

وتعود هذه المعرفة الطبية المحدودة الى مصدرين : اولهما تطور المعرفة العلمية الذاتية عند عرب الجزيرة . وثانيهما الصلات بين بلاد العرب وبين الحضارات التي قامت في مصر والعراق والشام وفارس .

فقد ذكر لنا التاريخ اسم طبيب في العصر الجاهلي درس في جنديسابور ، كما حفظ لنا اسم طبيب آخر درس في الاسكندرية في آخر عصر الجاهلية ، وابان ظهور الاسلام ، ولم يخل علينا التاريخ ايضا بأسماء الكثير من الاطباء الذين عاشوا في صحراء الجزيرة العربية او في باديتها او نجودها ومارسوا الطب ، وظل ذكرهم خالدا في الشعر او القصص العربي منذ العهد الجاهلي .

ولكن ، لابد ان اسماء الجنود المجهولين الذين سبقوا هؤلاء قد ضاعت ، اطباء اليمن المتحضرة ، واطباء الانباط ، وساحل البحرين ، وتدمر .

وقد حفظ لنا التاريخ فيما حفظ اسم طيبة عيون ذاع صيتها ، وعمت شهرتها ، وامتها الناس من اقصى انحاء الجزيرة لمداواة عيونهم ، هي زينب طيبة بني اود التي عاشت قبل الاسلام . فحفظ الشعر لنا اسمها لحسن الحظ .



تراجم الأطباء العرب

ان مصدرنا الرئيسي لدراسة حياة ومؤلفات الاطباء العرب في العصر الاسلامي هي كتب التراجم .

واعظم هذه الكتب واوفاهها هو كتاب (عيون الانباء في طبقات الاطباء) الذي كتبه ابن ابي اصيبعة في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) .

ولكن اقدم هذه الكتب جاء من القرن الثالث الهجري ، (٩ الميلادي) فان اسحق بن حنين ، هو الذي ألف أول كتاب عربي حول تراجم الاطباء (تاريخ الاطباء والحكماء) .

وابن ابي اصيبعة كان طبيب عبون في صلتخد ، دخل التاريخ من اوسع ابوابه بمؤلفه هذا ، الذي ما يزال مصدرا رئيسيا لدارسي تاريخ الطب ، وهو يبدأ بذكر الاطباء من اقدم العصور ، وينتهي بالترجمة لاطباء عصره وزملائه .

وهذا الاسلوب وضعه اسحق بن حنين ، واسحق هذا هو أحد أبناء حنين بن اسحق الترجمان ، وان كان الابن لم يصل الى مرتبة ابيه في الطب او الترجمة الا انه كان متميزا بميله الى (تاريخ الطب) ، فهو أول مؤرخ وضع كتابا متخصصا لتراجم الاطباء ، لذلك حق لنا ان نسميه (رائد تاريخ الطب) في الاسلام .

ويؤخذ على هذا الكتاب انه لم يذكر الكثيرين من الاطباء العرب بعد الاسلام ، ويبدو انه اكتفى بالقدر الذي ورد في كتاب يوحنا النحوي ، الذي عاش في الاسكندرية في القرن السادس الميلادي ، ونحن لا نعرف حتى الآن لماذا فعل اسحق هذا ، فانه على الرغم من اعتماده الواضح على كتاب يحيى (يوحنا) النحوي ، كان قادرا ان يترجم

لبعض اهتم الاطباء ، كحنين والده ، او يوحنا بن ماسويه ، استاذ والده ، ولعل الدراسات في تاريخ الطب تفسر لنا في المستقبل اسباب احجام اسحق هذا .

وبطبيعة الحال فان مؤرخي القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) عرضوا في كتبهم بعض قصص وسير الاطباء ، الا ان اسحق بن حنين كان السياق اذ افرد كتابا خاصا لهذا العلم الجديد .

ويمكن لنا ان نعود الى ما كتبه الطبري (ق ٣ هـ = ٩ م) او اليعقوبي (ق ٣ هـ = ٩ م) او المسعودي (ق ٣ - ٤ هـ = ٩ - ١٠ م) للبحث عن مادة اولية للدراسة هذه .

ولكن الامر لا يحتاج - بالنسبة الى القارئ العادي - الى هذا العناء ، لان القرن الرابع الهجري جاء بكتابين عظيمين في هذا الموضوع ، فابن النديم وضع كتاب (الفهرست) في نفس الوقت تقريبا الذي ألف فيه ابن جلجل كتابه (طبقات الاطباء الحكماء) (حوالي ٣٧٧ هـ) . وواضح ان كتاب ابن جلجل متخصص . بينما كتاب ابن النديم كتاب عام في التراجم .

وقد قبض الله لكتاب الفهرست مستشرقاً جليلاً هو الاستاذ فلوجل الألماني ، الذي حقق الكتاب وطبعه سنة ١٨٧٢ في لايبزغ (وان كانت هذه الطبعة ناقصة) ، بينما ظل كتاب ابن جلجل حتى سنة ١٩٥٥ منتظراً حظه ، الى ان جاء الاستاذ فؤاد سيد (أمين المخطوطات بدار الكتب المصرية آنذاك) ، فعققه وعلق عليه وطبعه .

وابن جلجل هذا عاش في الاندلس وكتب كتابه بطبيعة الحال دون ان يطلع على كتاب الفهرست الذي كتب في المشرق في العام نفسه تقريبا ، وهو في كتابه هذا لم يكن المجتلي بين الاندلسيين فحسب في هذا الحقل من حقول تاريخ العلم ، بل انفرد بان اطلع على بعض المصادر اللاتينية المتوفرة في الاندلس والتي لم تكن معروفة في المشرق . ففاق مؤلفي المشرق باطلاعه على هذه المصادر وحده . وكانت المؤلفات اليونانية (وهي التي ظفر بها المؤلفون الشرقيون) معروفة لديه ايضا .

ومن الجلي اليوم أن المعرفة العصرية ، قد تجاوزت كثيرا ما كتبه العرب في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، بل والقرن السابع الهجري (ابن أبي أصيبعة) ، فيما يتعلق بالأطباء قبل العصر الإسلامي ، وتكمن قيمة هذه المصادر العربية في أنها تعطينا فكرة عن معرفة العرب بالقدماء في ذلك العصر ، وعلى سبيل المثال ، فائنا لا يمكن أن نعتد على ما ذكره المؤلفون العرب هؤلاء عن جالينوس ، بل يجب أن نعود إلى أحدث المراجع في زمننا هذا .

وهذا لا يضير هذه الكتب ، بأي حال من الأحوال ، ذلك أن مقالة تنشر اليوم عن جالينوس مثلا قد تجعل مقالة نشرت في مطلع هذا القرن قديمة ولا يجوز الاعتماد عليها .

وإذا كانت كتب التراجم العظيمة التي ألفها العرب بدأت يابن النديم ، فإنها تطورت أيضا بمجيء ياقوت (في كتابه معجم الأدباء) في نهاية القرن السادس ، والوائل القرن السابع الهجري (١٢ - ١٣ م) وابن خلكان (في كتابه : وفيات الأعيان) في القرن السابع الهجري (١٣ م) .

والأمر نفسه نشاهده في (تاريخ الطب) فقد جاء القفطي في القرن (٦ - ٧ هـ) = (١٢ - ١٣ م) ليكتب لنا (أخبار العلماء بأخبار الحكماء) وهو كتاب جليل القدر ، كما جاء ابن أبي أصيبعة في القرن السابع الهجري = (١٣ م) ، لينتج جهود المؤلفين العرب في كتابه الدائع الصيت (عيون الأنباء) .

وابن أبي أصيبعة وصف الأطباء الذين عرفهم من خلال كتبه ومصادره وصفا أميناً ، وكثيرا ما احتاج إلى الاطلاع على كتبهم لكي يتعرف على شخصيتهم ويحكم على مقدرتهم .

أما الأطباء الذين عرفهم ، درس عليهم أو زاملهم ، فإنه كان في وصفه لهم مؤرخا وعالما نفسيا وأديبا ومصورا بديعا لشخصياتهم ، لذلك فإن دالسي تاريخ الطب العربي ، لا غنى لهم أبدا عن هذا الكتاب حتى اليوم .

وعلى كتاب ابن أبي أصيبعة هذا اعتمد المستشرق الألماني الكبير الأستاذ فيستنفلد في غوتنغن ، يوم نشر كتابه (تاريخ الأطباء وعلماء

الطبيعة العرب (سنة ١٨٤٠ ، فاعطى فكرة للباحثين في تاريخ العلوم عامة وتاريخ الطب خاصة ، عن المستوى الرفيع الذي وصل اليه العرب في الطب بين القرن التاسع والقرن الثالث عشر الميلاديين .

وكتاب فيستنفلد هذا هو اقدم ما كتبه الاوربيون عن الاطباء العرب ومن اكثر الكتب تأثيرا ، اذ لفت انظار الاطباء الى ضرورة دراسة التراث الطبي الذي كتبه العرب .

فلقد ترجمت امهات الكتب الطبية العربية وخاصة كتب التدريس ، الى العبرية واللاتينية ، بدءا من القرن الحادي عشر الميلادي ، وظل بعضها الكتاب الرئيسي في كليات الطب الاوروبية حتى القرن السادس عشر او السابع عشر ، واحيانا ، حتى القرن الثامن عشر .

وبعض هذه الكتب الطبية العربية المترجمة ، طواها النسيان رغم اهميتها ، فاهملت او ضاعت ، رغم ان اللغات الاوروبية لم تكن تمتلك كتباً احسن منها ، وبعض هذه الكتب لم يترجم اصلا ، وبعضها ترجم ترجمة رديئة او غير مفهومة ، وبعض هذه الكتب ، ظل يشكل عملا عظيما من نوعه ، لم تتوصل اوروبا الى كتابة مثيل له حتى القرن الثامن عشر او التاسع عشر .

ومع ذلك فان كتاب فيستنفلد نبه العالم الى الكنز الذي لا حدود له من المؤلفات العربية في الطب التي لم تترجم او التي لا يعرف مكانها ، او التي عبث بها يد الزمن .

وجاء عالم آخر : لوكل الطبيب الفرنسي الذي اتى مع الجيش الفرنسي الى الجزائر ، وتعرف على الطب العربي ، من المعاملة الشعبية ، وفي المخطوطات ، فتحول انتباهه الى تاريخ الطب العربي ، الذي ملك كل جوارحه ، ففرق في مخطوطات دار الكتب الوطنية في باريس . وكتب كتابه العظيم (الطب العربي) الذي نشره قبل اكثر من مائة عام . والذي عد مرجعا هاما لا يستغني عنه لدراسة هذا الجانب من جوانب الثقافة العربية . ومن المؤسف ان قرنا كاملا مر على صدور هذا الكتاب ، الذي لم يفقد قيمته بعد ، وان اصبح غير كاف للدراسة ، واصبحت

بعض المعلومات الواردة فيه قديمة ، وتجاوزها البحث مؤخرا من المؤسف
ان هذا الكتاب لم يترجم بعد الى العربية ، ونأمل ان ينتهي الدكتور
سلمان قطاية من ترجمته وطبعه .

وكذلك كتب براون كتابا اخر عن الطب العربي .

ولكن العمل العظيم الذي لا يشق له غبار في حقل تاريخ الطب
العربي هو : العمل الذي قام به هيرشبرغ استاذ طب العيون ، جامعة
برلين في مطلع هذا القرن ، فان هيرشبرغ أوكل اليه عن جدارة ان يكتب
(تاريخ طب العيون) في كتاب عظيم الفه الاساتذة الالمان كان فريدا من نوعه
في مطلع القرن العشرين ، ليكون مرجعا لاطباء العين للدراسة هذا الفن ،
من جميع جوانبه ، فكان حاويا لتاريخ العين ووظائفها والعلوم الاساسية
الطبية والحيوية المتعلقة بها وامراض العين وجراحاتها ، وجميع العلوم
والفنون المشتركة معها . او الضرورية لفهمها . هذا الكتاب هو (كتاب
طب العيون) (Handbuch d . Augenheilkunde) (Graefe u. Saemisch)

وقام هيرشبرغ بكتابة تاريخ هذا الفن الجراحي الذي كان يدرسه في
جامعة برلين بادئ بطب العين في مصر القديمة ، ومنتهيا بالقرن التاسع عشر .

وقد تمكن هيرشبرغ بفضل معرفته للغات من ان يعرض عددا من
كتب طب العين التدريسية عند العرب . وان يترجم بالتعاون مع
مستشرقين آخرين المانيين (ليبيرت ومنفوخ) Lippert , Mittwoch
بعض كتب طب العين العربي الى الالمانية .

وعلى الرغم من كل الدراسات التي جاءت في هذا القرن في حقل
تاريخ الطب العربي فان قصب النسب يظل لهيرشبرغ .

فبفضله أصبحت الطريق الى دراسة طب العيون عند العرب ممهدة ،
وظلت فنون الطب الاخرى تحتاج الى رائد مثله .

وقد جاء بعد هيرشبرغ طبيب العيون الالمانى - اليهودي - مايرهوف
الذي قضى شطرا من حياته كبيرا في القاهرة ، ذلك انه احب هذه
الدراسات التاريخية من جهة ، ولان النازية كان قد ذر قرننها في المانيا ،

جاء مايرهوف ليكمل طريق هيرشبيرغ العظيم ، وقد عمل هو بدوره أيضا مع بروغفر Prüfer حينما ، ومع الاب سباط حينما آخر ، ومع غيرهما أحيانا أو عمل منفردا ، فنشر عددا كبيرا من المقالات الرائعة حول طب العميون العربي ، وحول الطب العربي عموما ، ولعل عمله في نشر كتاب حنين بن اسحق هو أضخم أعماله على الإطلاق .

ولكن الدارس العربي الآن في حقل تاريخ الطب عموما أصبح ليسر حظا ، فإن كتاب بروكلمان (تاريخ الادب العربي G. A. L.) ثم كتاب سزكين (تاريخ التراث العربي G. A. S.) جعلتا مهمته اسهل من ذي قبل .

إضافة الى المرجعين الهامين الآخرين (قاموس الاعلام للزركلي) (ومعجم المؤلفين) لعمر رضا كحالة .

ولكن أحد أبداع ما كتبه العرب في هذا القرن ، في هذا المجال هو كتاب الاستاذ سامي خلتف حنارفة (بيلوغرافيا في الطب والصيدنة في الاسلام في العصر الوسيط) .

ولعل عصر اهتمام العرب بتاريخهم قد بدأ . وإن اهتمامهم به وقيامهم بالابحاث حوله ليس تقريبا لشأن المستشرقين أو غير العرب وإنما من باب القيام بالواجب القومي .

وعلى الرغم من أن التراث والتاريخ والعلم ، وكل هذه الامور ملك للبشرية جمعاء دون أي شك ، فإن من واجب الناطقين بالعربية أن ينهضوا للقيام بالمهمة : وهي تحقيق هذا التراث العظيم والتعليق عليه . وأجراء الدراسات حوله ، بروح الجدبة والتجرد . لوجه العلم وتوخيا للحقيقة وهم أقدر من غيرهم ، ذلك لأن هذا التراث مكتوب بلغتهم .

وإن ظهور امثال الاب سباط والاب قنواحي والاستاذ خير الله والاستاذ منتصر والاستاذ طوقان والاستاذ حداد والاستاذ الشطي والاستاذ شحاده والاستاذ قطاية والاستاذ التجاني الماحي وما كتبوه في هذا الحقل ، وما كتبه زملاء لهم آخرون للدليل وبشير على عودة العرب الى الاهتمام بتاريخ الطب في تراث امتهم .

وقد أردت في هذا الفصل ان اعطي امثلة فقط ، فقد كنت مدركا صعوبة حصر اسماء المؤلفين والعلماء والباحثين ، ولكن قراء هذا الكتاب ، اذا لم يكتفوا بطرف الخيط هذا ، فان بإمكانهم العودة الى الكتب المتخصصة ذات الطابع العلمي الجاد .

فمثلا : بن ابي اصيبعة يقف في كتابه عند القرن الثالث عشر الميلادي فمن اراد ان يعرف ماذا حصل بعد هذا العصر ، عليه ان يراجع الحاج خليفة او البغدادي او احمد عيسى به . اما اذا كان ملما بغير العربية فالامر يختلف واذا كان متقنا للغة اوروبية او اكثر فان ابواب مكتبات العالم تنفتح امامه ، عشرات المؤلفات ، ومئات المجلات المتخصصة وآلاف المقالات . ومن اراد ان يلج هذا الباب فالطريق امامه اصبح معبدا ، وما اكثر الجامعات والمعاهد التي يسعدها ان تأخذ بيده ، اذا اراد ان يعمل ، ويسرها ان ترشده اذا اراد ان يقرأ .



مركز تحقيق تكملة علوم اسلامی



حفظت كتب الاقدمين لنا وصفا دقيقا لشخصية هذا الطبيب ،
الاستاذ ، التي لا تقل اعتدادا بذاتها عن أي استاذ في اكااديمية عصره
للطب ، ومع ذلك ورغم القسوة الظاهرة احيانا في حديثه مع
تلاميذه ، فإنه كان مقربا من الخلفاء العباسيين الذين عاصروهم .

جاء والده الطبيب من جند سابور التي كانت اعظم مركز للطب
في ذلك العصر ، فيها ازدهر الطب اليوناني ، واغتنى بعناصر هندية
وفارسية ، بل وبهناصر اقدم ، ذات منشأ بابلي . جاء الى بغداد ،
عاصمة الدنيا في ذلك الوقت ، وكان يوحنا فتى يوم وصل الى بغداد فقد
ولد حوالي ١٦٠ هـ - ٧٧٦ م . وتمتع يوحنا بتربية صارمة في وسط
علمي وفي بيت محترم ومرموق ، وتعلم الطب من والده ثم خلف
والده بعد وفاته واصبح رئيس المستشفى في بغداد ، الذي كان يعمل
والده فيه ، كما نال مركزا رفيعا في بلاط الرشيد واصبح طبيبه .

وظل في مركزه المحترم من عصر الرشيد حتى عصر المتوكل ، طبيا
للخليفة العباسي في بغداد اولا ، ثم في سامراء .

ولما كان ابن ماسويه ينحدر من اسرة سريانية فإنه لم يمتلك
ناصية اللغة العربية كما كان الامر عند حنين بن اسحق تلميذه ولم يكن
كذلك متقنا للغة اليونانية ، ولذلك فان تعريبه للتعابير الطبية الفنية
كان معتمدا على الاساس الفارسي او السرياني ، وليس اليوناني ، ومع
ذلك فان بعض مصادرنا تروي انه قام بالترجمة من اليونانية الى العربية
وهو ما يبدو لنا مفتقرا الى الدقة .

وتروي المصادر لنا ايضا ، ان يوحنا ابن ماسويه كان يذهب الى
بيزنطة للحصول على كتب الطب والاتيان بها الى بغداد .

وكان غزير الانتاج الطبي عموما ، وكتب في مجال طب العين كتابين هامين : اولهما (دغل العين) وثانيهما (معرفة محنة الكحالين) .

وعلى الرغم من أن ابن أبي أصيبعة يذكر لنا أسماء اثنين وأربعين كتابا في الطب الفها ابن ماسويه ، الا اننا نعثر على اقتباسات من كتب اخرى لم يذكر اسمها ابن أبي أصيبعة وقد وردت هذه الاقتباسات في كتاب الرازي العظيم (الحاوي) ، ولقد كان ابن ماسويه قليل النظم فلم ينل من مؤرخي الطب اهتماما كبيرا لذلك فان الكثير مما روته عنه المصادر ما يزال بحاجة الى التدقيق ، فقد روت بعض المصادر أنه كان يشرح القردة التي تأتي اليه من مصر ، الا ان دراسة وافية للمعلومات التشريحية في كتبه ما تزال تنتظر من يقوم بها لاثبات او نفي هذه الرواية على اساس المعلومات التي وردت في كتبه في مجال التشريح ومقارنتها بمعلومات الاقدمين لمعرفة ما اذا كانت رواية التشريح هذه صحيحة .

وعلى الرغم من عظمة هذا الاسناد والمؤلف فان انشغاله بإدارة المستشفى والتعليم والتأليف ، وصحته للخلفاء ، تضاعفت جميعا ومنعته من أن يعطي وقتا كافيا للممارسة الطبية لذلك فاننا نفتقد في كتبه الملاحظات السريرية الشخصية .

ومع ذلك فان تاريخ الطب يشهد له بفتح عظيم ، فهو اول من وصف (السبل) هذا المرض الذي يظهر بتشكل اوعية دموية على القرنية ، والذي يعود سببه الى التراخوم .

والمؤكد ان المؤلفين الاغريق لم يعرفوا هذا المرض ، نظرا لخلو بلادهم منه فهل ياترى عرف ابن ماسويه هذا المرض ووصفه نتيجة ممارسة الشخصية او انه تعرف عليه من بعض الاطباء الذين اتصل بهم او تتلمذ عليهم او استفاد منهم ؟ خاصة وان ابن ماسويه يصف عملية جراحية لهذا المرض ، ظلت هذه العملية توصف في كتب طب العين العربية حتى القرن الرابع عشر الميلادي .

وكتاب ابن ماسويه (دغل العين) لم يبق منه الا نسخ نادرة ، مكتوبة

يخط رديء ، تشيع فيها اخطاء لغوية تؤكد ان النسخ لم يكن جديرا بنسخ مثل هذا الكتاب العظيم .

ومن الغريب ان بعض الباحثين الكبار في تاريخ الطب العربي مثل مايرهوف ، يعزون ضعف الاسلوب ، وركاكته ، ورداءة اللغة ، الى المؤلف ، هذا الامر الذي ما كان يجوز لرجل مثل مايرهوف ان يتردد امامه ، فكم اساء النسخ الى اصول الكتب ، وهل كان يعقل ان كتابا يكتب في العصر العباسي الاول ، وفي بلاط الخلفاء ، كان من الممكن ان يظهر الى النور بعربية رديئة ؟

واغلب الظن ان ابن ماسويه اعتمد على الكتب المكتوبة باللغة السريانية كمراجع أساسية لكتابه كما اعتمد عليها في اقتباساته لآراء الاطباء الاغريق مثل ابقراط وجالينوس وايراز ستراتوس واهرن القس .

ومن اهم ميزات هذا الكتاب وجود الاقتباسات العديدة من المصادر الهندية (كنكا) او السريانية (اشليمون) .

وكتاب (دخل العين) هذا هو اقدم كتاب تعليمي في طب العين كتب بالعربية .

وهو اقدم كتاب تعليمي في طب العين ما تزال البشرية تمتلكه ذلك ان كتب اليونان المماثلة والسابقة في عصرها لهذا الكتاب ، قد ضاعت كلها فلم يصلنا منها شيء الا من خلال الترجمات او الاقتباسات العربية .

ويتميز أسلوب هذا الكتاب بحيوية بارزة تشير الى الصلة القائمة بين الاستاذ المحاضر ، وبين طلبة الطب ، مما قد يدعونا الى الظن بان هذا الكتاب او بعض فصوله ربما كان قد كتبه احد او بعض طلاب ابن ماسويه .

ويعلق مؤلف الكتاب أهمية كبرى على استجواب المريض وعلى تأمله تماما كما تفعل اليوم .

اما المصطلحات الفنية التي يعتمد عليها الكتاب ، فقد ترجمها المؤلف عن الفارسية او السريانية ، فجاء تعريبه مختلفا عن تعريب تلميذه حنين

ابن اسحق الذي اعتمد اليونانية مصدرا للترجمة . قبلورة العين
او العدسة كما نستخدم اليوم على تسميتها عربيا ابن ماسويه
قائلا - البردية - مشبها اباها بحبة البرد .

اما حنين ، فانه عربيا قائلا (الرطوبة الجليدية) لانها جسم رطب
يشبه الجليد .

وما نسميه اليوم قميصا في العين ونعنى به جزءا من غلاف العين ،
قال عنه ابن ماسويه انه (حجاب) بينما قال عنه حنين انه (طبقة) .

وعلى الرغم من ان كتب جالينوس في تشريح العين وغزائرها كانت
قد ترجمت الى السريانية قبل عصر يوحنا ابن ماسويه ، فاننا لا نجده
في كتابه هذا يتبع تشريح جالينوس للعين .

ومن غير المعقول ان يكون يوحنا ابن ماسويه غير عارف بوجود لهذه
الترجمات وغير مطلع عليها .

فهل كان ابن ماسويه لا يحفل بتشريح جالينوس ؟ ام ان بعض
تلاميذه الذين نفترض انه كتب بعض او كل محاضرات ابن ماسويه هو
الذي اهمل التفاصيل التشريحية المأخوذة عن جالينوس واكتفى بالقليل
الذي ذكرته المصادر السريانية ؟ .

اما الاعمال الجراحية على العين فان ابن ماسويه يعرضها عرضا
موجزا ، مما يرجح ظننا بان ابن ماسويه لم يمارس الطب ممارسة كافية .

وهذا الكتاب الذي نحن بصددده مختصر ، يحتوي على ٧ فصولا
حصة علم الفرائز فيها قليلة وخاصة (نظرية الابصار) ، وهذا
يطرح علينا سؤالا اخر عن علاقة ابن ماسويه بالمصادر الاغريقية
التي اظنت في عرضها لنظرية الابصار وتناقض فيها اصحاب
النظريات .

اما كتابه الاخر (معرفة محنة الكحالين) فهو كتاب شديد الاهمية
ايضا لانه كتب على شكل السؤال والجواب وهو اقدم كتاب عربي طبي
الف على هذا الاسلوب ، وهو يختصر كل علم امراض العين ، في عدد

محدد من الأسئلة ، لكي يدرسها طلبة الطب ، وهو يقدم مادة
مختصة ومكثفة .

وقد أصبح هذا الأسلوب متبعاً ومحبوفاً من قبل الأساتذة العرب ،
فألف حنين كتاباً من هذا القبيل سمي (المسائل في العين) وتبعه
الرازي وآخرون .

ولم يقتصر هذا النوع من التأليف على طب العين ، بل شاع في
مختلف فروع الطب .

وقد اقتبس الكثيرون من كتابي ابن ماسويه هذين ، نذكر منهم
الرازي والقمري .



مرکز تحقیقات کتابخانه و اسناد ملی



حسین بن اسحق

لا يختلف اثنان أن حنيناً بن أسحق (من أحسن رجال التاريخ خلقاً) وهو إضافة إلى ذلك أحد عباقرة الترجمة في تاريخ البشرية كلها .

وقد ألف حنين بن أسحق كتاباً طائر الصيت الذي يعتبر أول كتاب تدريسي في طب المين مؤلف على الطريقة العلمية .

وهذا الكتاب له قصة وإعادة اكتشاف لها قصة أخرى .

إلا أن القصة التي يجب أن نبدأ بها هي قصة المؤلف ، ومنبثه في الحيرة .



الحيرة :

مركز تراثي كبير في العراق

فعلى بعد قليل من مدينة النجف العراقية ، وقبل أن تبني الكوفة ازدهرت مدينة الحيرة مركزاً للملوك اللخميّين .

واسم هذه المدينة : أصله آرامي ومعناه « المخيم » = « حرتنا » لأن أمراء اللخميّين أقاموا هناك مخيماتهم الثابتة في ظل سيادة الفرس .

وقد تطورت المدينة ، ثم جاءتها النصرانية وانتشرت فيها بين عامة السكان ثم تنصر أمراءؤها أنفسهم في آخر الأمر .

ونجد حينما نقرأ تاريخ الكنيسة الشرقية ذكراً لممثلي نصاري الحيرة في أخبار المجامع الدينية ، وذلك بدءاً من مطلع القرن الخامس الميلادي ، وقد بنت هند أم الملك عمرو ديراً في أوائل القرن السادس ، عرفت فيما بعد باسمها .

وقد اشتهرت الحيرة فيما اشتهرت به بقصورها . كالإبلق والخورنق وقصر العديسين .

وفيها راجت الكتابة بالعربية وانتشرت منها الى انحاء الجزيرة العربية فكان لها فضل في نشوء وتطور الخط العربي .

وقد تجمع فيها عدد من المسيحيين جاءوا من قبائل عربية مختلفة ومن وجهات متعددة ، وسموا انفسهم (بني عباد) اشارة الى انهم (عباد الخالق) ، ومن هؤلاء انحنر أبو زيد حنين بن اسحق ولدا لصيرفي وبائع ادوية واعشاب طبية .

وكان خالد بن الوليد قد اتجه الى الحيرة ، فاستسلمت دون حرب ثم بنيت الكوفة عن بعد ثلاثة اميال الى الشمال منها مما ادى الى تضؤل شأن الحيرة بعد الاسلام .

وشاء سوء طالع هذه المدينة ان لا يختارها الخلفاء العباسيون عاصمة لهم مما ادى الى اضمحلالها ، واضمحلال الاقليم المحيط بها . ولكنها كانت في القرن التاسع مازال عامرة حين ولد فيها في مطلع هذا القرن حنين بن اسحق الذي قبض له ان يكون أحد مشاهير الرجال في التاريخ ، واحد اكبر عباقرة البشرية ، في الترجمة .

وقد كان حنين ميالا الى دراسة الطب ودخل في عداد تلامذة الاستاذ الكبير يوحنا بن ماسويه وكان حنين ميالا الى الاكثار من الاسئلة ، ولعل يوحنا قد ضاق ذرعا بأسئلته ذات يوم فلم يكن لطيفا في الرد عليه . وقال له كلاما قلل فيه من شأنه ، باعتبار انه من اسرة غير طبية ، وكأنما صنعة الطب وقف على طبقات معينة في المجتمع ، ولم يحتمل حنين المرهف الحس هذه الاهانة . التي وجهها الاستاذ « المتعجرف » ففادر مجلسه ولم يعد . ودرس لغة الاغريق وجاب انحاء البلاد حتى اتقن هذه اللغة اضافة الى اتقانه للغة السريانية والى مقدرته النادرة في لفته الام (العربية) وقد عرف حنين السريانية ايضا منذ طفولته بفضل نشأته الدينية اذ كان شماسا يلبس « الزنار » .

ولما اتقن حنين هذه اللغات ، واصبح فارسا في هذا الميدان عاد الى موطنه وعمل في الترجمة واشتهر كترجمان ينقل من الاغريقية الى السريانية او الى العربية ومن السريانية الى العربية ، فأصلح كثيرا من

ترجمات أسلافه وزملائه الترجمة الذين وقعوا في بعض الأخطاء الناجمة عن ضعفهم في إحدى هذه اللغات الثلاثة .

ثم لم حنين ، وأصبح ترجمان الخلفاء ، وطبيبهم وجليسهم .
وتعرض إلى مجموعة من الدسائس والمؤامرات من حساده وخصومه فلم ينزل إلى مستوى المهاترات ، ولم يفقد إيمانه بالله ولم يتنازل عن مبادئه وأخلاقه ، فازداد أصحاب الأمر ثقة به وأعجابا وأصبح رجلا مهيب الجانب يساعده ابن اخته ، جيش وإيثار ، ومجموعة من تلاميذه في أعمال الترجمة في شتى العلوم ومنها العلوم الطبية .

وترك هؤلاء وعلى رأسهم أساتذهم حنين دويبا في تاريخ العلوم ليس له مثيل في أي زمان وأي مكان .

ولقد روى ابن أبي أصيبعة قصة حياة حنين . وما تعرض له من دسائس وكيف تغلب عليها وذكر قصة تجواله بحثا عن العلم وطلبها لاتقائه اللغات اللازمة لرجل العلم في ذلك العصر ثم كيف عاد إلى البصرة لكي يتمكن من فنون اللغة العربية ويتعرف على مجالس لغوييها .

ويحكى لنا صاحب (عيون الأنباء) أيضا كيف استقبل هذا الفتى حين عودته ، وكيف وثق به أساتذته ، وكيف عاد يوحنا بن ماسويه إلى ملاطفته وكيف تعرف عليه الخلفاء العباسيون من خلال صلته بالبختيشوع أطباء البلاط العباسي وأسائفة جنديسابور الكبار ، ثم كيف أوكلت إليه مهمة العمل في (دار الحكمة) .

ثم يروي مؤرخنا العظيم (ابن أبي أصيبعة) قصص النكبات والشدائد التي حلت به ، وكيف صمد في وجهها بكل إيمان وثقة بالنفس . وكيف ازداد اكبار الخليفة له واحترامه إياه حينما رفض أن يستخدم علمه في سبيل الأذى ، وأن يسخر الطب من أجل القتل السياسي للخصوم فأظهر بذلك مستوى من الأخلاق الشخصية والمهنية تميزه بين أطباء الملوك في كل تاريخ الطب .

وكلنا يعرف كيف استخدم معاوية ابن ابي سفيان اطباء البلاط لدس السموم لخصومه السياسيين . فما ازداد حنين في عيونهم الا عظمة وشموخا .

جالينوس وحنين :

لقد اطلع حنين على كتب جالينوس وترجم عددا كبيرا منها وقد لخص ما يزيد على خمسة عشر كتابا من كتبه المتعلقة في طب العين والعلوم التابعة له تلخيصا . بديعا في تسع مقالات - كتبها في مدة تزيد على الثلاثين عاما .

وبعض كتب جالينوس هذه مفقودة لا نعرفها الا من خلال كتاب حنين هذا ، وبعض الكتب التي اعتمد عليها جالينوس مفقودة ايضا لا نعرف من محتواها الا ما لخصه حنين .

وقد جمع حنين هذه المقالات ثم اضيفت اليها لاسباب غير مؤكدة بعد ، مقالة هاشرة حول ادوية العين المركبة ويقال ان مقالة اخرى قد اضيفت الى هذا الكتاب تبحث في العمليات الجراحية التي تجرى على العين .

ومهما يكن من امر الكتاب واسباب جمع هذه المقالات ودور حبش - ابن اخت حنين في جمعها او دعوة خاله الى جمعها فان الكتاب يلخص تلخيصا رائعا كل ما خلفه لنا جالينوس في هذا الحقل فهي تعرف تشريح العين والعصب البصري والدماغ كما تشرح نظرية الابصار وعلم الاراض والاسباب والعلامات وتصنف ايضا ادوية العين المفردة والمركبة .

وقد كان هذا الكتاب واسع التأثير على جميع المؤلفين العرب الذين جاءوا بعد القرن الميلادي التاسع .

فان علي بن عيسى كحال بغداد الشهير ، واحد اعلام الكجالة عند العرب ، وكذلك عمار بن علي الموصلية . الذي استقر آخر امره في مصر ، والذي يعتبر اشهر جراحى العين العرب عبر العصور

بل احدى اهم جراحي التاريخ ، كلاهما قد اعتمد اعتمادا واسعا على كتاب حنين هذا ، وكذلك خليفة بن ابي المحاسن الحلبي . وصلاح الدين بن يوسف الحموي اللذين الفا كتابين تدريسيين من اهم ما ألفه الكحالون العرب .

ونقل عنه ايضا ابن الاكفاني والشاذلي اللذين عاشا في مصر في القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر الميلادي) كما طار صيت الكتاب غربا فوصل الى الاندلس وذكره واقتبس منه الفافقي في القرن السادس الهجري وطار صيته شرقا فاقتبس منه الجراح « ذو اليد الذهبية » ابو روح بن منصور الجرجاني في كتابه الشهير (نور العيون) الذي كتبه بالفارسية والذي يعتبر اول كتاب طبي عيني في الاسلام كتب باللغة الفارسية .

على أن اهم الاقتباسات عن هذا الكتاب هي تلك التي اوردها الرازي في موسوعته (الحاوي) هذه الموسوعة التي لم تر النور الا بعد وفاة صاحبها .

ولقد تميز كتاب حنين هذا على الرغم من عهده المبكر بأنه احتوى على بعض الصور التشريحية الجميلة والملونة والواضحة . وما زلنا لحسن الحظ نمتلك نسخة في القاهرة .

هيرشبرغ ومايرهوف والبحث عن هذا الكتاب :

حينما كتب هيرشبرغ كتبه عن تاريخ طب العيون لم يترك مؤلفا لاتينيا في العصور الوسطى الا وقراه . كما جمع كل ما كان معروفا في ايامه من المخطوطات العربية وعهد بترجمتها الى اثنين من كبار المستشرقين .

وكان من جملة ما قرأه هيرشبرغ هو النص اللاتيني المترجم عن العربية للحاوي والذي امتلا بالاقتباسات عن حنين .

كما عثر هيرشبرغ على كتابين لاتينيين مطبوعين ، أحدهما اسمه (كتاب جالينوس في العيون) من نقل ديمتريوس . والآخر اسمه (كتاب قسطنطين الأفريقي في العين) ، ويفترض أن يكون ديمتريوس قد ترجم الكتاب الأول إلى اللاتينية من لغته الأصلية كما يفترض أن يكون قسطنطين الأفريقي قد ألف الكتاب الثاني .

وبمقارنة الكتابين تبين لهيرشبرغ أنهما كتاب واحد على الرغم من رداءة اللغة وسوء الطباعة في الكتابين .

وقد تمكن هيرشبرغ من أن يحدد أن كلا الكتابين .. مترجم عن حنين . وذلك بالعودة إلى الاقتباسات الموجودة في الحاوي بطبعته اللاتينية التي لا تقل سقما من حيث الترجمة والطباعة عن مثيلتيها المنحولتين .

ولما كان التراجمة اللاتينيين قد عرفتوا بضعف قدرتهم على الترجمة بسبب قلة اتقانهم للعربية .. ولما كان الاقتحال منتشرا جدا بينهم في المصور الوسطى فقد عرف هيرشبرغ أنه أمام كتاب حنين مترجما إلى اللاتينية مرتين دون الإشارة إلى المؤلف .

فمن غير المعقول أن ديمتريوس شاهد كتب جالينوس كلها ، ثم قراها وترجمها ، فجاءت ترجمته مطابقة تماما مع أسلوب حنين الذي درس هذه الكتب وهضمها ثم كتبها بالعربية . على مدى يزيد على الثلاثين عاما .

وعاد هيرشبرغ إلى وصف ابن أبي أصيبعة لكتاب حنين ، واستعراضه تسلسل الفصول فيه ، فوجد تطابقا تاما مما أعطى البرهان الساطع على صحة ما ذهب إليه .

ولكن : أين الكتاب باللغة العربية ؟

لم يكن هيرشبرغ قد عثر عليه كما لم يكن قد عثر على الحاوي باللغة العربية أيضا .

وكان على الأوساط العلمية أن تنتظر مجيء مايرهوف لينجز هذا العمل الضخم .

فقد عشر مايرهوف على نسختين من هذا الكتاب احدهما في القاهرة
في مكتبة خاصة ، والاخرى في لينينغراد .

وقد تمكن مايرهوف من ترميم هذا الكتاب بكل دأب وصبر
وبدقة متناهية . .

وعاد مايرهوف ليعرض الكتاب على احد كبار المستشرقين الذي
سلخ قسما من حياته وهو يدرس حياة حنين ولغته واعماله كترجمان ،
وذلك لكي يتأكد من ان هذه اللغة ، وهذا الاسلوب هما لحنين .
هذا الاستاذ الكبير هو بير جشتراسر في ميونيخ . .

وقد قرأ الاستاذ النص العربي باهتمام شديد ، ونبه مايرهوف
الى بعض الاخطاء التي وقع فيها في عمله ، كما اصدر حكمه على الكتاب
مبينا أن هذه اللغة التي كتب بها هي ليست لغة حنين دائما .
ولا عجب فان حنين كتبه على مدى يزيد على ثلاثين عاما وربما جاءت
الصياغة النهائية للمادة مرة على يد حنين ، ومرة على يد ابن اخته
حبيش ، ومرة على يد تلاميذ آخرين . لذلك . . لم يعد أمامنا . . الا
ان نقول : ان هذا الكتاب هو كتاب الفه حنين ، ووصل الينا بلغة
اخرى . فان نسختنا المحققة والطبوعة اذن نسخة منسوبة الى
حنين كما عبر مايرهوف .

وهذا لا يقلل من قيمة الكتاب بالنسبة الى دارسي الطب ، ولكنه
بالتأكيد يقلل من قيمته بالنسبة الى المؤرخين ودارسي اللغة .

وعلى الرغم من ذلك فان الكتاب احتفظ بالتعابير الفنية التي وضعها
حنين فاليه يعود الفضل في ترجمة العديد من المصطلحات الطبية من
اليونانية الى العربية . وفي الحقيقة فان أسماء معظم اجزاء العين التي
نستعملها اليوم ، دون أن نعترف مصدرها . . هي أسماء لم تكن
معروفة بالعربية قبل عصر حنين . واليه يعود الفضل في اشتقاق أو نحت
أو وضع الكثير من التعابير الطبية بالعربية ولا غرو فقد امتلك حنين ناصية
لغات العلم جميعا في عصره . . وترك بصمات أصابعه على لغتنا المعاصرة . .
أكثر مما فعل أي ترجمان غيره . بل أي لغوي . . في تاريخ لغتنا الطويل .
وإذا أردنا أن نعطي مثلا على ذلك فالتنا نقول : ان هذه الكلمات الفنية ،
الشبكية ، أو الصلبة ، أو القرنية ، هي أمثلة على مدى فهمه
للمعنى في لغة الاغريق . . وعلى مدى دقته في التعبير بالعربية .

كتاب المسائل في العين :

أما الكتاب الهام الآخر الذي كتبه حنين فهو (كتاب المسائل في العين) ، وهو يحتوي على مائتين وسبع عشرة مسألة مع أجوبتها وصيغة الكتاب تشير الى أنه كتب للمتعلمين .

ويحتوي الكتاب على ثلاث مقالات ونجد فيه ، اذا تأملنا مادته الطبية مختصرا مكثفا للمعلومات التي ينبغي أن يعرفها طلاب الطب .

وقد نشر الأب سباط ومايرهوف هذا الكتاب بعد أن نشر الكتاب الاول .

وينبغي علينا أن ننظر دراسة علمية مقارنة لهذين الكتابين من وجهتي النظر : الطبية ، والتدريسية .

واذا أردنا أن نستعمل التعابير العصرية فإنا نقول أن علمي التشريح ووظائف الأعضاء قد احتوت عليهما المقالة الاولى . بينما غلبت على المقالة الثانية الدراسة السببية للأمراض ، وخصصت المقالة الثالثة لأعراض الأمراض وعلاماتها .

وقد ذكر أن حنينا كتب عددا من المقالات القصيرة أو الرسائل .. بعضها يشبه بعض مقالاته التي وردت في كتابه الاول وبعضها ربما كان شيئا جديدا .

وقد رأى الأب سباط بعض هذه المخطوطات في مكتبات خاصة في حلب ، إلا أنها لم توصف ولم تلوس بعد ، وقد أصبح مصر هذه المكتبات مجهولا للأسف .

وإنا نجد أنه أصبح من الضروري الآن .. بعد نشر كتابي حنين الرئيسيين وبعد نشر (الحاوي) ، أن تجرى دراسة مجددة للمادة العلمية التي كتبها حنين .

اعتمادا على هذه النصوص والمقتبسات لكي نعرف مقدار التجديد الذي أجراه حنين على فن طب العين ومدى التقدم الذي أحرزته كتبه التدريسية قياسا على الكتب الإغريقية .

فمن الواضح أن حنينا كان أهم مرجع اعتمد عليه الكحالون العرب في تأليفهم في العصر الذهبي ، فأضافوا اليه من معلوماتهم ، وملاحظاتهم السريرية وخبرتهم المستقاة من العمل في المشافي وفي الممارسة الخاصة بعد أن نسقوا هذه الملاحظات بشكل منهجي .

المرئي ومنها بملأ الجنور أيضاً هذا الدواء وصفته
 شاذج درهم شنج مخرف مرقر درهمان توسا مغسول نصف درهم
 لولو غير مغسول نصف درهم ابار مخرف درهمان كحل اصفهاني
 منق نصف درهم يدق ويشتعل ذروراً او كحلانا نفع ان شاء الله
الباب الثاني في الشرب

في غير لون القرنية وعلاجها

اما غير لون القرنية فيكون من كموير نخل فيصبغ لونها الطبيعي
 فمثل نورما وحنيا وما وصال لذلك استعماله ويكون ذلك من
 سبعين اصباحا لكثرة الرطوبة اعني لكثرتها والافر كينيتها اخرى
 للونها فان كانت كينيتها فانه يرى من بعضه ذلك الاجسام كلها
 كأنها دخان وضباب وسوف اذكر علاجه في رطوبة القرنية
 ان شاء الله تعالى فاما ان كان مرجعه كينيتها فمرصاه ذلك
 يرى الاجسام كلها باللون الذي هي عليه اعني القرنية وذلك لانها
 ان كانت مرصاة لم يعرض لمرصاه الطرفه فانه يرى الاجسام كلها
 هراً ويكون صدام مثل ما يعرض لمرصاه البرقان لم يرى الاجسام



علي بن عيسى الكحل

وهذا أيضا أحد أعظم أطباء العيون في التاريخ . انتقل بكتب التدريس إلى أسلوب جديد في التصنيف ، متجاوزا حنين بن اسحق والاقلمين . وقد سار على منهج علمي صارم ، مهتديا بالتقسيم التشريحي للعين ، فيبدأ بأمراض الإحقان ثم بأمراض جهاز الدمع ، ثم بأمراض المنحمة ، ثم ينتقل إلى أمراض القرنية فأمراض القرنية وهكدا بينما كان المؤلفون قبل عصره يتحدثون عن أمراض العين جملة واحدة دون تصنيفها حسب الأعضاء .

وفي كل فصل من فصول كتابه نرى وضوح أسلوبه وتسلسله المنطقي فهو يطالعنا أولا بتوضيح ماهية المرض وشرح طبيعته ، ثم يذكر أعراضه وعلاماته ، وأوصافه ومميزاته ، وبعدها ينتقل إلى ذكر أسباب هذا المرض ، وفي النهاية يذكر المعالجة .

وفي المعالجة لا يحيد عن أسلوبه العلمي أبدا . فهو يبدأ بالمعالجات العامة التي تطبق على الجسد لفائدة العين المريضة ثم يذكر الأدوية الموضعية التي تطبق على العين .

وهذا النموذج من الكتب المدرسية ، ما يزال نعمل وفقه حتى الآن أي منذ ألف عام . فأسلوب علي بن عيسى هو الأسلوب الذي ما يزال يحكم طريقة التصنيف والتأليف والتدريس في مادة أمراض العين . ويعتبر هذا الكتاب حتى اليوم قطعة فريدة بين كتب التدريس ، من حيث أصالته وسبقه ودقته ومنهجيته وأسلوبه ، لذلك فلا تعجب إذا عرفنا أن طلاب الطب انصرفوا عن الكتب الأخرى ما عداه ، وظل مرجعا للدارسين على مدى ثمانمائة عام ، كما أن الأطباء اعتمدوا عليه . وهذا الكتاب إذا فورن بكتب حنين يعتبر خطوة هائلة إلى الامام ،

ولا تعرف البشرية خلال القرون الثمانية التي تلت صدوره كتاباً يعادله في القيمة .

وكان على البشرية ان تنتظر انتصار الافكار القائلة بان موضع الساد هو في البلورة وليس امامها خلافا لما ذهب اليه جالينوس ، وكان عليها ان تنتظر ظهور نظريات (كبلر) في البصريات لكي تحصل على كتاب يتفوق على كتاب علي بن عيسى هذا اي ان الانتظار طال حتى القرن الثامن عشر .

وقد أطلق علي بن عيسى على كتابه اسم (تذكرة الكحالين) . ووصفه الباحثون بأنه كتاب منهجي لطبيب مجرب مارس المعالجة والجراحة . كما ان الكتاب يعتبر بحق الكتاب التعليمي الكلاسيكي عند العرب في طب العيون .

وقد ترجم هذا الكتاب باكراً الى الفارسية والى اللاتينية ثم طبع مرارا . وعلى الرغم من ان الترجمة اللاتينية غير مفهومة واحيانا غير مقروءة . . الا ان أوروبا ظلت بحاجة اليه ردحا طويلا من الزمن .

وقد اعيد اكتشاف هذا الكتاب من قبل مؤرخي الطب في العصر الحديث ، ودرس بنصه الاصلي اي بالعربية ، ثم ترجم الى كثير من اللغات الأوروبية ، فظهر عندئذ مدى ضعف وركاكة الترجمة اللاتينية وكذلك ترجم جزء من الكتاب ثانية الى اللاتينية في سنة ١٨٤٥ .

ويظهر لنا من قراءة هذا الكتاب ان مؤلفه كان مطلعا على ما كتبه ابقراط وجالينوس وديوسقوريدس وأوريباسيوس وبولص وحنين . فهو اذن مؤلف من الدرجة الاولى ، عرف كتب الاقدمين واستفاد منها ، وكتب للطلبة فأجاد الكتابة ، اضافة الى كونه طبيباً من الدرجة الاولى .

وبدأ المؤلف بدراسة تشريح العين ووظائفها ، وتقع هذه الابحاث في واحد وعشرين فصلاً تشكل مجموعها : المقالة الاولى من تذكرة الكحالين .

اما المقالة الثانية ، فتبدأ بدراسة الامراض وتشتمل هذه المقالة على

أربع وسبعين فصلا ، والمقالة الثالثة تكمل المقالة الثانية وتقع في سبع وعشرين فصلا .

ويستعرض المؤلف على سبيل المثال : امراض المتحمة في خمسة عشر فصلا . وكذلك امراض القرنية . في نفس العدد من الفصول .

ونستطيع اليوم ان نقرا هذا الكتاب مطبوعا بالعربية بفضل دائرة المعارف العثمانية التي نشرته سنة ١٩٦٤ في حيدرآباد الدكن بتحقيق الاستاذ غوث محيي الدين القادري ، وكذلك نستطيع قراءته بالالمانية مع تعليقات هامة عليه بفضل الاستاذ الكبير هيرشبرغ .

وفي نفس الوقت الذي كتب فيه علي بن عيسى كتابه (تذكرة الكحالين) في بغداد ، ظهر جراح عبقري في الموصل كلن كثير الاسفار ، واستقر به المقام في مصر ، وكتب كتابا مختصرا اسماء (المنتخب في علاج امراض العين) وهو عمار بن علي الموصللي .

وقد ظهر الكتابان في وقت واحد تقريبا ، وان دراسة الكتابين تؤكد لنا ان ايا من المؤلفين لم ير كتاب المؤلف الآخر .

ومع ذلك فاننا نرى في كتاب عمار الاسلوب نفسه الذي اتبعه علي ابن عيسى في التأليف : الالتزام بالتقسيم التشريحي للعين عند تصنيف الامراض وعرض ماهية المرض اولا ثم ذكر علاماته وبعد ذلك شرح طرق المعالجة .

ويحق لنا ان نتساءل هنا كيف حدث هذا ؟ هل التزم كلاهما بالاسلوب سائد في ذلك العصر ؟ ام انهما اهتمتا في وقت واحد الى هذا النوع من الاسلوب المنطقي في عرض المادة العلمية للدارسين ؟ ام ان كتابا ظهر بعد عهد حنين ، وقبل عهدهما سبقهما الى اتباع هذه الطريقة ؟ وكان مصدرا لهما ؟

واذا كان الاحتمال الثالث مرجحا . . فمن هو هذا المؤلف ؟

لا اريد في هذه المجالة ان اجيب على هذا التساؤل الكبير ، ولكنني اجدني مضطرا ان اشرح باختصار كيف يحاول مؤرخو العلوم الاجابة عليه

نحن لانعرف - من كتب التراجم - بعد عهد حنين ، وقبل عصر هذين المؤلفين الا ثلاثة من اطباء العيون الذين كتبوا كتباً في هذا الفن .

أحدهم : أبو علي خلف الطولوني الذي ألف كتاب (النهاية والكفاية في تركيب العينين وخلقتهما وعلاجهما وادويتهما) والذي توفي في النصف الاول من القرن الرابع للهجرة .

وثانيهما : أعين بن أعين الذي صنف كتاباً هاماً أسماه (كتاب في امراض العين ومداواتها) والذي نجد له ذكراً في قائمة الكتب التي اعتمد عليها خليفة ابن أبي المحاسن حينما ألف بدوره كتاباً في طب العين في مرحلة متأخرة ، ولكن خليفة يذكره تحت اسم (امتحان الكحالين) ، وبهذا الاسم عرفه صلاح الدين بن يوسف واقتبس عنه .

وثالثهما محمد بن سعيد التميمي من بيت المقدس ولكن هذا الطبيب لانعرف له الا كتاباً واحداً : (في ماهية الرمد وانواعه واسبابه وعلاجه) .

ولما كان تعبير (الرمد) يستعمل فنياً في ذلك العصر ، للدلالة على التهاب الملتحمة الحاد ، حصراً ، وليس للدلالة على (امراض العين) عموماً كما يستعمل اليوم في مصر ، فأننا نستبعد ان يكون هذا الكتاب شاملاً في امراض العين شأن الكتابين الاولين .

ولما كان كلا الكتابين مختلفاً اليوم ، أو مفقوداً ، ولما كنا لا نعرف حتى الان اقتباسات هامة من أي منهما فإنه من المتعذر - في حدود معرفتنا الان - ان نجيب على هذا السؤال الهام .

ثم : ألا يمكن ان يكون صاحب هذا الاسلوب طبيباً أهمل اصحاب التراجم ذكره أو طبيباً اشتهر ولم يترك لنا مؤلفاً في طب العين ؟

وقد نسبنا الى علي بن عيسى فضل السبق الى هذا الاسلوب ذلك ان كتابه كان الكتاب الكلاسيكي للتدريس طيلة ثمانية قرون دون منازع وقد ظل هذا الكتاب مترجماً على عرشه رغم ظهور كتب متأخرة العهد ككتاب خليفة الذي أشرنا اليه ، أو كتاب صلاح

الدين بن يوسف أو غيرهما ، من مؤلفي الكتب التدريسية بعد القرن الثاني عشر .

وأذا كان كتاب (تذكرة الكحالين) قد نال هذه الشهرة وهذا الانتشار فإن كتاب (المنتخب) قد رقد في زوايا النسيان وكان سيء الحفظ على الرغم من تفوقه على (التذكرة) في كثير من الصفات ، ولا نريد هنا مقارنة بين الكتابين فهذا امر يخرج عن غاية هذا الكتاب .

ولذلك فأننا نفرد الى علي بن عيسى هذا الشرف في أن يكون صاحب الأسلوب الذي سيطر على المؤلفات التي جاءت بعده على مدى ألف عام .



مركز تحقيقات علوم وادب اسلامی

براهه متأسر في علم باع ومهم ثابته متلفه
 به واعلمت الحيلة عليه حتى اباع له مضاف
 الهنكل المردعة فيه فوجره في جملته المفلو
 الزه امر في امير المؤمنين بطلبه مكتوباً بالزهد
 رجعت الي المحضر المنصور، كخام ابا لم اء وان
 يكن يوحنا هاء الحبيباً كانت الفلسفة
 اغلب عليه ولم يخدم بالذهب ملكاً ولا أميراً
 حنبر ابا سحار فليبر يوحنا ما سون
 عالمنا بلسان العرب فصيحاً باللسان اليوناني
 حرا بارعاً في اللسان يترجم لغة بلغها غير علل
 اللسانين ونحرم من بغداد الى ارض فارس وكان
 الخليل بن حجر النخعي رحمه الله بارعاً في فارس ولم
 يلزمه حنبر حتى يرضع في لسان العرب وادخل
 الصخر بغداد ثم اخبر للترجمة وانتم عليها وكان
 المحنبر لها جعفر المتوكل على الله ووضع له كتاباً
 بغير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَبِاسْتِخْرَاجِ
 مَسَدِ كَاتِبٍ مَعْرِفَةِ الْعَيْنِ وَطَبَعَاتِهَا ٥
 وَأَشْيَاءَ بِهَا، وَمَحَارِيقَ وَأَصُولَ زَكَاةِهَا، وَمَسَائِلَ
 فِي عِلْمِهَا، وَاسْتِجَابَانِ فِي كَيْفِيَّاتِهَا، وَكَيْفِيَّةِ زَكَاةِهَا
 إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ هَلْ عِنْدَهُ عِلْمٌ بِالْعَيْنِ
 أَوْ مَعْرِفَةٌ عَلَى حِجَةِ الْمَسْئَلَةِ وَالْجَوَابِ، وَأَنْ يَعْصِي
 عَلَى حَقِيقَةِ عِلْمٍ ذَلِكَ يُقَالُ أَنْ تَسْأَلَ تَسَائِلَ
 فَعَالٍ لَكَ الْعَيْنِ مَا هِيَ وَالْجَوَابُ فِي ذَلِكَ
 أَنْ يَقُولَ الْعَيْنُ الْبَصَرُ كَمَا أَنَّ الْأَذْنَ الْهَلْ
 السَّمْعُ وَالْأَنْفُ الْهَلْ السَّمُّ وَاللِّسَانُ الْهَلْ الْمَنْطِقُ
 وَكَذَلِكَ الْعَيْنُ الْهَلْ الْبَصَرُ فَإِنْ قَالَ مُسَائِلَ مَا
 هِيَ وَمَا هِيَ مَرْكَبَةٌ قِيلَ لَهُ مِنْ عَصَبٍ
 وَغَضَلٍ وَرَطوباتٍ وَطَبَعَاتٍ فَإِنْ قَالَ
 صِفْهَا لَيْفَ زَكَاةِهَا وَمَا أَشْيَاءُ طَبَعَاتِهَا وَرَطوباتِهَا
 وَكَيْفَ نَالِهَا قِيلَ لَهُ فِي الْعَيْنِ لَكَ رَطوباتٌ

معرفة مخنة الكحالين ابن ماسويه

نسخة نور عثمانية - اسطنبول

مطلع الكتاب - الورقة ١٢٨ ب من المجموع

(رقم ٢٥٧٦ / ٤)

زعفران وساج هندی من كل واحد وزن درهمين سحقا
 اولاً والموثر والمرقشياً بالثلاثة ايام ويحفظ ويضاف اليه
 باقى الادمية ويستعمل نافع وفي نسخة اخرى ثوباً عشرة دراهم
 تحار عجيب بوزن درهمين يوزن اذيج تسعة دراهم
 ثوباً ثلاثة دراهم قلميها الذهب درهم واحد تحم بالصبول
 هذا الوزن فانها تقوم مقام النحل المتخذ ما في الافو وحى
 الداسموس من بيب الحار بوزن درهمين بوزن درهمين
 بوزن درهمين بوزن درهمين بوزن درهمين بوزن درهمين

هذا هو عمل من بلاد الهند

من كل واحد
 فان ضحك الحار من النافعين ولا تعرض له بشئ اية
 البدن والرحمة في الحضرة والشيء في الباطن فانه عاين

الباب الثالث في المشروبات

الصحة الحفظية في هذا التدبير هو الذي من
 حفظ الحال على امر عليه لان الصحة هي الالبدن جارية
 على ابي الطبيعي وتبديلها يختلف من اجل ان كل واحد
 من الناس مخالف لصاحبه في المزاج فمنهم الحار ومنهم البارد
 ومنهم

ديوسقوريدس وتلميذ له

صورة لديوسقوريدس وتلميذ من قلاعيده بمسكان بنبطة طيبة .

وتؤكد هذه اللوحة على فكرة قيام الأستاذ بالتدريس .

والغلب الظن ان هذه الصورة تعود الى رسم من شمال بلاد الشام او العراق في القرن

الثالث عشر الميلادي (٧ هـ) .



الصيدلية



الصيدلي او مساعده في الطابق الاسفل يحضر دواء .. بينما نخزن الادوية في اوان
كبيرة تحتل الطابق العلوي من الصيدلية . والاعلى ان الصيدلي هو الشخص المرسوم
في الايسر .

ولقد انفصل علم الصيدلة عن علم الطب في العهد الاسلامي .

تسمیاتی اوصاف و مناسبات و حلال و حرام و طہارت و صلا



ابن سينا يجس نبض مريض

اشتهرت هذه القصة كثيرا . الرواها معظم مؤرخي الطب العربي عن ابن سينا الذي
يجس نبض مريض . ويعرف من تنبؤ النبض انفعالات المريض . ويكشف قصة غرام الفتى
بعد ان يعيد بلد وحي وعشيرة المحبوبة .



العضلات المحركة للعين

وهذا القدم رسم تشرحي في تاريخ الطب . إذ لم يبق لنا من عهد قدماء المصريين أو الأفريق
اية مصورات تشرحية .

وهذه الصورة من مخطوط حنين بن اسحق (العشر مقالات في العين) . وقد عاش
حنين في القرن التاسع الميلادي (٢ هـ) .



الثانيه في طبيعة الدماغ ومنافعه وقد عجب على من اراد
 بيعة العين ان يكون بطبيعة الدماغ عالمًا اذا كان مبداهًا منسبه
 لها يرجع اليه وانما يعرف الانسان طبيعته الشئ اما عده واما
 التي هو مخصوص بها فلك قد عجب علينا ان تعلم ما حد الدماغ
 الذي هو مخصوص به فنقول ان كل عضو من الاعضاء ^{خاصة} ^{بعض} ^{خاصة} ^{بعض}
 عنصريه اعني من طبيعته والاخر من نوعه اعني من فعله ومنفعته
 ضاخر خاصين اي كدر عشرين احدها كذا ذكرنا من طبيعته وهو
 ان الدماغ عضو بارد ابرد اعضا البدن وارطبهاه ولحد الآخر
 والحاجة اليه وهو ان نقول ان الدماغ استدي الحس والحركة
 والسكينة وكل الحدين فخصان الدماغ دون غيره من الاعضاء
 الاول وهو ان الدماغ ابرد اعضا البدن وارطبها فانه لا يبع
 الاعضاء مع الدماغ لانه ليس في البدن عضو ارطب من الدماغ
 منه وذلك لما اناد اكره لك بعد ايضاح فعل الدماغ واما
 اني التابل ان الدماغ استدي الحس والحركة الارادية

كلمة شكر

هذه الدراسة استندت تصوير بعض المخطوطات ومراجعة المصادر التراثية في عدد من المكتبات .
وقد تكرم السادة القائمون عليها بالسماح بالعمل .
وسهّلوه ، وجعلوه ممتعاً . فلهم جزيل الشكر وهذه المكتبات هي :

اسطنبول	مكتبة طوب قابو سراي
اسطنبول	المكتبة السليمانية
اسطنبول	مكتبة نور عثمانية
برلين الغربية	مكتبة الدولة
بغداد	مكتبة المتحف العراقي
بغداد	مكتبة المجمع العلمي العراقي
تونس	دار الكتب الوطنية
دبلن	مكتبة تشسر يتي

Chester Beatty

Dublin

دمشق	دار الكتب الظاهرية
طهران	مكتبة مجلس الشيوخ (سنا)
طهران	مكتبة مجلس النواب (مجلس شوراي ملي)
غوتا Gotha	مكتبة الاقليم
الفاتيكان	مكتبة الفاتيكان

